ذاكرة الحناء

حكايات من مدينة الفاو في سبعينات القرن العشرين

يرويها

ماجد عبد الحميد المطوري

مراجعة وتقديم

أحمد محمد الموسوي

هوية الكتاب

اسم الكتاب..... ذاكرة الحنّاء... حكايات من مدينة الفاو في سبعينات القرن العشرين
المؤلف..... ماجد عبد الحميد مسلم المطوري
الطبعة..... الأولى ٢٠٢٥م

لوحة الغلاف للفنان عبد الكريم موسى الدوسري
والصور المنشورة مأخوذة من صفحة منارات الحنّاء

رقم الإيداع فى دار الكتب والوثائق فى بغداد ( )

تقديم

عن حكايات المدن الآفلة

يغيب المكان والزمان في الكثير من السرديات العراقية، وهي ظاهرة لها أسبابها الطبيعية، فحين تخضع الكتابة لمسدس الرقيب يحاول الكاتب أن يشوش على المكان والزمان فهما دالتان صريحتان لمقاصد الكتابة وغاياتها، ودليلان على تجاوز حدود المقبول في الأنظمة البوليسية القمعية وفي المجتمعات المنغلقة التي يقودها العقل الجمعي المتعصب... فالكتابة هنا مع التصريح عن الزمكان تفضح خطة الكاتب وتؤلب عليه السلطة، سواء كانت حكومية أم شعبية أم مافيوية.

أما الكتابة المتصالحة مع السلطة أو التي لا تستهدفها فهي تستطيع أن تكشف عن الزمكان وتحددهما ولا تضطر إلى اخفائهما أو تمويههما...

ومن باب المقارنة نستطيع أن نتبين الفرق الكبير بين ما قدمه السرد في مصر من ناحية ابراز المكان بكل تفاصيله وبمسمياته حتى صرنا نحفظ جغرافية المدن والشوارع والحواري المصرية وأسماء أبرز أسرها وعشائرها، من خلال السرد وكأننا عشنا وترعرعنا فيها، إضافة

إلى أنه أسهم كثيراً في أرشفة ذاكرة تلك الأمكنة والحفاظ عليها، على عكس السرديات في الرواية والقصة العراقية التي في أغلبها تحاول الهروب من توصيف المكان واظهاره بقوة، تلافياً للوقوع في شباك المحظور السياسي أو الاجتماعي.

وعلى الرغم من التنوع الجغرافي الهائل في البيئة العراقية، الذي أنتج تنوعاً اجتماعياً لا يقل عنه أهمية، إذ لا تجد بيئتين اجتماعيتين متطابقتين تماماً في اللهجة والعادات مهما اقتربتا جغرافياً، إلا أن السرد العراقي بمجمله لم ينتبه لهذه الخاصية المتعلقة بالمكان، أو أنه تجاهل اظهارها تبعاً لتحاشيه اظهار المكان، فترى السرد يحوم في دائرة مكانية افتراضية واحدة تقريباً ويهرب في أكثر الأحيان إلى اللامكان أو إلى المكان المتخيل، خصوصاً في السرديات التي يتناول فيها الحالات السلبية، وذلك أننا في العراق لا نستطيع التكهن بردود الفعل الاجتماعية إذا ما تناول السرد حالات سلبية أو شخصيات غير سوية، ونسبها إلى مكان بعينه، إذ لا عاصم للكاتب من ردود الفعل هذه، خصوصاً وأن الذهنية العراقية اعتادت التعميم ولا تعترف بالخصوصيات الفردية في داخل المجتمع، فإذا رسم كاتب ما –سردياً- شخصية اجرامية ونسبها لمكان معلوم فإننا لن نأمن ردة الفعل التي تتهم هذا الكاتب بأنه قد أساء للبيئة الاجتماعية كلها في ذلك المكان.

هناك علاقة جدلية بين المجتمع –أفراداً وجماعات- وبين الأمكنة، وليس بعيداً عن الزمان (الزمان الاجتماعي)، وتتجلى هذه العلاقة فيما يمكن أن نطلق عليه عملية الخلق المتبادل، فالناس (المجتمع) تخلق المكان، تشكله، تصنعه وتضفي عليه روحاً تتشاركها معه في زمانها هي، مثلما يخلق المكان بالمقابل ناسه ومجتمعه وشخوصه وأبطاله ويتشارك معهم عاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم ولحظاتهم التاريخية، لتتشكل بالتالي ما نطلق عليه (الذاكرة الاجتماعية) التي تكون الأساس لهوية مجتمع ما، وهي التي تميزه عن المجتمعات الأخرى، ولذلك تتنوع هذه الهويات أو الثقافات –بالمعنى الأشمل للثقافة- بين مجتمع وآخر وبين مدينة وأخرى، ولا تبقى هي ذاتها في الأفراد حين انتقالهم للعيش في أمكنة أخرى، لأنها تظهر وتتجلى دائماً مع العلاقة الجدلية بينهم وبين تلك الأمكنة.

ولا يمكن أن نتصور مدينة ما بدون تواشج الزمكان وهو (مضروب) بالشخصيات، أو بالناس، ولا يمكن أن تُنسج الحكايات بدون هذه المعادلة، فالحكاية هي الحياة وهي حركة الناس في المكان والزمان، والذاكرة الاجتماعية هي الحكايات برائحة المكان والزمان والناس.

أسوق هذه الفكرة للحديث عن أهمية سرديات المدن التي تغور في الخصوصيات الاجتماعية تكشفها وتؤرشفها في الوقت ذاته وتحولها

إلى ذاكرة اجتماعية مدونة، تحافظ عليها من الضياع في حركة أشبه ما تكون بتوثيق لحظة ما بصورة فوتوغرافية.

في (ذاكرة الحنّاء) للعزيز الدكتور ماجد عبد الحميد المطوري[1] نلمس تلك المحاولات التي توثق الذاكرة الاجتماعية بحكايات على طريقة التصوير الفوتوغرافي لمدينة الفاو، وهي المدينة المنكوبة على مدار ربع قرن أو أكثر، بحروب عبثية من العام ١٩٨٠ صعوداً إلى ما بعد سقوط الطاغية والاحتلال الأمريكي للعراق. حيث عملت هذه الحروب على تغيير مدينة الفاو ديمغرافياً واقتصادياً وطبيعياً بالكامل، إن لم يكن أعدمتها في بعض المراحل، ومن ثم قضت على فرصة توارث ذاكرتها الاجتماعية بين الأجيال بفعل التهجير الذي طال السكان مكاناً، وطال بهم زماناً، فتوالدت في الأسر الفاوية أجيال

[1] الصديق العزيز الدكتور ماجد عبد الحميد مسلم المطوري، اختصاص طب الباطنية والكلية، عرفته انساناً طيب القلب محباً للفقراء ميالاً ومنحازاً لهم دائماً، يعشق مدينته الفاو عشقاً جنونياً، إذ لا نكاد نحضر في مجلس إلا وكان للفاو حصة غير قليلة من الأحاديث، يروي لنا باستمرار ما علق في ذاكرته عن تلك المدينة التي أفلت بفعل الحروب والدمار الذي لحق بها، وهو في الوقت نفسه قارئ نهم للأدب العالمي، وخصوصاً للأدب الروسي، ويحتفظ بمكتبة أنيقة، فخمة وثرية من ناحية العناوين التي تحتضنها الرفوف، وقد كتب هذه الحكايات في العام ١٩٨٠، عام اندلاع الحرب العراقية الإيرانية، وبعد التهجير الذي تعرضت له عائلته وعوائل الفاو عموماً، وهو إذ ذاك طفل في الرابعة عشر من عمره، فكتبها بذاكرة فاوية ممزوجة بخيال طفل، ولم يغير في نسختها النهائية الكثير سوى التأكد من بعض المعلومات أو شطب بعضها... وهذه الحكايات في نسختها هذه، هي أصدق برأيي مما لو كانت قد كتبت في وقت متأخر حتى وإن توفرت لها إمكانيات رجل بالغ وملم بفنون الكتابة، فقربها من الأحداث مكنها من أن تولد بصحة جيدة، وكونها آتية من رحم خيال طفل جعلها أكثر حلاوة وصدقاً.

جديدة في مدن الهجرة نشأت وترعرعت في بيئات مختلفة تسمع عن الفاو وتتعاطى ثقافتها في داخل الأسرة، لكنها ممتزجة بثقافة المدن الحاضنة مما شكل خطراً واضحاً يهدد تلك الثقافة الأصيلة لمدينة الفاو بالضياع أو بالتلاشي والتماهي.

ولا أقول إن هذه الحكايات مع غيرها كفيلة باستعادة تلك الثقافة، فهذا أقرب للمحال، ولكن تدوين الذاكرة الاجتماعية للمدن الآفلة هو أشبه بعملية وصل عضو مبتور في جسد الإنسان، لا بد منه إن أمكننا ذلك حتى وإن لم يبدُ في النهاية كالأصل.

احتوت المجموعة على تسعٍ وأربعين حكاية، نستطيع أن نصنفها إلى:

- حكايات كان محورها شخصيات وثقت لهم وسردت بعض تاريخهم ومآثرهم.

- حكايات تؤرشف للأمكنة، تصفها وتتحدث عن أهميتها في المدينة وتربطها ببعض الأحداث والشخصيات.

- حكايات تؤرخ لأحداث معينة مهمة، حدثت في عقد السبعينات من القرن الماضي وبقيت عالقة في ذاكرة الكاتب.

- وهناك حكايات أخرى جمعت بين هذه المقاصد كلها أو بأجزاء منها.

ومن الجدير بالذكر أن أشير هنا إلى ضرورة تبني فكرة انشاء متحف لمدينة الفاو يأخذ على عاتقه جمع تراث المدينة الغابر –ولا أدري إن كان هذا المتحف موجود حالياً أو لا- ولكن من أجل وصل الذاكرة

الاجتماعية البعيدة للمدينة بأجيالها الحالية ولكيلا تتبدد ثقافتها مع الزمن على أهل المدينة العناية بهذا المشروع ونقله من الفكرة إلى الواقع، بل وأكثر من ذلك، يتوجب عقد ورش وندوات لتعريف الشباب بتاريخ مدينتهم وتراثها الهائل. كما هي دعوة للجامعات ومراكز البحوث للاهتمام بتراث المدن العراقية وخصوصاً الآفلة منها، لاستعادتها من خلال الدرس والتأرخة والتوثيق.

أحمد محمد الموسوي

كانون الأول ٢٠٢٤

١

في العام ١٩٧٨ سمع كل أهالي الفاو عن وصول سفينة البردي التي تم صناعتها في أهوار البصرة وبأنها ستمر في مياه شط العرب لتبحر بعد ذلك إلى كل محيطات الدنيا... يومها وقف كل أهالي الفاو أمام شط العرب لمشاهدة هذا الحدث التاريخي...

المفارقة، كان في شارعنا في منطقة الجبيلة وهو شارع عيسى بندر، شخص يعيش لوحده ولا أعرف لماذا كان الجميع يطلق عليه اسم (أبو خصاوي التنك) وهو رجل مربوع القامة في العقد الخامس من عمره تقريبا... وأنا شخصياً لم تكن لدي أية معلومات عنه، ولا أعرف ماذا كان يعمل... كان يعيش في بيته في هدوء تام ويخرج للشارع يلقي التحية والسلام بكل أدب، وكنا نحن الأطفال نخشاه، لا لسبب معين وانما فقط بسبب الاسم الذي عرفناه به... وكان دائما ما يرتدي (الدشداشة)، وفي أيام الشتاء يلبس فوقها (الجاكيت)...

لنعد إلى قصة سفينة البردي...

توجهنا جميعاً مع عوائلنا في أحد مساءات العام ١٩٧٨ إلى ضفاف شط العرب لمشاهدة السفينة الأعجوبة! ولكننا نحن الأطفال تخلّفنا عن عوائلنا لنذهب لوحدنا حتى نمتلك المزيد من الحرية والمزيد من

الفرح في هذه المناسبة التاريخية، فذهبنا نحن أبناء شارع (عيسى بندر) وكنا؛ بدر حيدر وفؤاد خضيّر فيروز ورياض خالد عبد الرحمن، وسامي عزيز نايلون، وحبيب عبود عيسى، وأخي نهاد وأنا... اللطيف في الأمر أننا عندما مررنا في الشارع كان (أبو خصاوي التنك) متواجداً أمام باب بيته وصاح بنا (وليداتي انتو رايحين حتى تشوفون سفينة البردي، ترى هاي السالفة مثل غيرها، ولا يقشمروكم، وليداتي اهتمّوا بدروسكم وانجحوا، لأن ما يفيدكم بس العلم والوطن)...

وإلى أن تركت الفاو إلى لأبد لم أعرف من هو (أبو خصاوي التنك)، ولم أعرف اسمه...

ملاحظة: عندما وقفت سفينة البردي في قضاء الفاو، وتحديداً أمام حديقة الخليج العربي على مسافة عشر دقائق من بيتنا، لم يكن بمقدوري أن أحب هذه السفينة الدخيلة، الغريبة عن أهل الفاو البسطاء الطيبين، وكانت سفينة البردي تلك نذير شؤم على أهالي الفاو.

٢

في بداية السبعينات كان الكثير من أهالي الفاو لا يمتلكون ثلاجات في بيوتهم لغرض حفظ المواد الغذائية وتبريد الماء، لذلك كان الأهالي يقومون بالتسوق بشكل يومي لوجبتي الغداء والعشاء، وبقي هذا الحال حتى العام ١٩٧٧ عندما قامت الدولة بإنشاء جمعيات خاصة وقامت باستيراد المواد المنزلية بكثرة، وعند ذلك دخلت الثلاجات لكل البيوت في الفاو...

الحكاية تعود للعام ١٩٧٣ عندما كان الكثير من أهالي الفاو يستخدمون (الترامز الخشبية) لغرض تبريد الماء في أيام الصيف الحارة، وكان يتم وضع قوالب من الثلج في (الترمز) لغرض تبريد الماء وشربه، لذلك كان أهالي الفاو وقتها بحاجة إلى معامل لصنع قوالب الثلج حتى يتمكن الناس من شرائه...

المعمل الذي لا أنساه أبداً هو المعمل المعروف باسم ثلاجة (عيسى الأخرس) لأنها كانت أمام بيتنا تماماً في منطقة الجبيلة ولا يفصل بيتنا عنها سوى نهر الجبيلة...

كانت هذه الثلاجة وهي الأشهر في القضاء عائدة لإنسان طيب من أهالي أبو الخصيب اسمه (الحاج عبد الحسين باقر) وكان أولاده أطباء في البصرة...

قام (الحاج عبد الحسين) بإعطاء عيسى الأخرس الصلاحيات كافة فيما يخص العمل في الثلاجة...

وكنا نسمع صوتها وهي تعمل طوال النهار، وخرير الماء وهو ينساب بين المكائن...

يبدأ العمل منذ ساعات الصباح الباكر، ويقوم عيسى الأخرس بعمله بقوة وعنفوان وأخلاق كبيرة وكان يمتلك قوة عضلية مهولة وجسد طويل عملاق، وكان يلعب بقوالب الثلج ويتباهى بها وكأنه يلعب بقطع شطرنج...

كانت الناس تلتزم بالوقوف بالدور لشراء قوالب الثلج وكل قالب يقسم إلى أربع قطع، وكانت النساء تقف بصف والرجال بصف ثان...

ولم يكن هناك أدنى تأخير في قضاء حوائج الناس بأخذ حصتها من قوالب الثلج...

اتذكر مرة واحدة حصلت أزمة في بيع الثلج وامتدت صفوف الناس مئات الأمتار وهي تنتظر دورها في الحصول على مبتغاها من الثلج، و(عيسى الأخرس) يعمل بلا كلل ولا ملل ويحرص على أن تحصل كل العوائل على حصتها من الثلج في الصيف شديد الحرارة...

والأحاديث عن (عيسى الأخرس) كثيرة، ويعرف قوته الجسدية كل أهالي الفاو الذين عاشوا في تلك الأيام... حتى وصلت قوته أن قام برفع سيارة شيفر موديل ١٩٦٢ من الخلف، رفعها إلى حد استقامة جسده وسط اعجاب الناس وتصفيقهم وكنت أحد شهود هذا الحدث...

كان قوياً بشكل مذهل وخلوقاً بشكل يدعو لاحترامه إلى حد كبير.

٣

تختزن الذاكرة وبمساعدة الوالد معلومات عن المقاهي التي كانت موجودة في مركز قضاء الفاو قبل اشتعال الحرب العراقية الايرانية في العام ١٩٨٠ وقيام كل أهالي الفاو بتركها بسبب الحرب... والمقهى مفرد المقاهي ويسميها العوام (گهوة)

كان في قضاء الفاو عدد من المقاهي يرتادها الناس صباحاً ومساءً... وسأحاول باختصار التطرق لهذه المقاهي بحسب ما موجود في الذاكرة وبحسب المعلومات المستقاة من الوالد...

المقهى الأول كان يسمى (گهوة ناصر) وهي لشخص من أهالي السيبة اسمه (ناصر) وبعد وفاته آلت لشخص اسمه (عنيّد) وتم تسمية المقهى باسمة وكانت تقع بالقرب من محل (باتا) في سوق الفاو.

المقهى الثاني هو (گهوة عيسى ابراهيم)، وكانت تقع في قلب السوق، ولكنه تركها بعد مدة من الزمن وتحولت إلى فرن مشهور في الفاو وهو فرن الحاج (نجم عبود عاشور)، وكان يعمل في هذه المقهى شخص اسمه (غريب) الذي افتتح گهوة خاصة به بعد ذلك.

قام (عيسى ابراهيم) بنقل مقهاه إلى مكان قريب من گهوته السابقة التي تحولت إلى فرن، لتكون أمام الفرن تماماً.

المقهى الثالثة هي (گهوة غريب) وهو الشخص ذاته الذي كان يعمل في گهوة (عيسى ابراهيم) وكان موقعها في السوق بالقرب من حسينية الحاج (كاظم البغدادي) وكان لهذه المقهى شهرة كبيرة في قضاء الفاو.

المقهى الرابعة هي (گهوة زنگي) وكانت لشخص اسمه (محمد) ومكانها بجوار كراج الفاو الرئيسي، وكان أكثر روادها هم من السواق في القضاء.

المقهى الخامسة هي (گهوة جاسم غريب) وكانت تقع تماماً أمام (گهوة زنگي).

المقهى السادسة وهي التي لا أتذكر اسم صاحبها وكانت تقع في السوق بين المحال العائدة لأملاك الوجيه (عبود محمد خليفة) وتقع بالقرب من بيت (عبد الواحد شايع).

وأتذكر في بداية السبعينات كان إسحاق ابن خالي أحمد غضبان يعمل في (گهوة غريب) بأجر يومي واستمر يعمل فيها مدة طويلة.

وكذلك أتذكر أن (گهوة زنگي) أغلقت ذلت مرة بأمر من صاحبها (محمد) ثلاثة أيام حداداً على وفاة أم كلثوم في العام ١٩٧٥.

٤

كانت المخابز في مركز قضاء الفاو لا تتجاوز عدد أصابع اليد، لأن أغلب الناس كانت تخبز في بيوتها، في (تنانيرها الطينية).

إلا أن المخبز الذي التصق بذاكرتي هو المخبز الذي يقع في نهاية شارعنا في الجبيلة المشهور في الفاو باسم (مخبز عيسى بندر) وهو اسم مالكه الأصلي...

كان شارع (عيسى بندر) في الجبيلة يتكون من صفين، كل صف عبارة عن ١٢ بيتاً... أغلب البيوت في هذا الشارع كانت مبنية من الطين، وبعد منتصف السبعينات قام البعض بهدمها وبنائها مجدداً من البلوك أو الطابوق...

كانت منطقة الجبيلة في الفاو تعد بالدرجة الثانية أو الثالثة قياساً مع بقية بيوت مركز القضاء كمنطقة حي عدن أو الكمالية أو الميناء أو الكمب حيث كانت تتميز هذه المناطق بالبيوت العصرية التي تم بناؤها من قبل الميناء أو شركات النفط في العهد الملكي أو في بدايات العهد الجمهوري...

كان مخبز (عيسى بندر) يقع في نهاية الشارع تماماً وهو مقتطع أصلاً من بيت (عيسى بندر) وكان وقتها دهدار منطقة الجبيلة... وكان

يفصل المخبز عن جامع (الشيخ جاسم) الشهير في الفاو مجرد شارع...

كان والدي له حصّة النصف في هذا المخبز مع (أبو محمد) وهو ابن صاحب المخبز واسمه (عبود عيسى بندر). إذ كانا يرتبطان بعلاقة صداقة جميلة ووطيدة...

في بداية السبعينات قام والدي بفض هذه الشراكة بسبب انشغاله بعمله في الميناء وكذلك لعمله في التجارة، إذ كان يمتلك محلاً لتجارة المواد الغذائية وله محل لغسل وكوي الملابس بالإضافة إلى أعمال اخرى...

بقي المخبز يعمل صباحاً ومساءً وكنت طفلاً صغيراً أذهب في الصباح والمساء لشراء الخبز، وكنت معجباً جداً بالخباز الذي يعمل بالمخبز لوحده، وعمله يعادل عمل خمسة أشخاص، فهو الذي يحضر العجين ويكور كرات العجين (الشنگ) ويخبز وهو الذي يلتقط الخبز الناضج من التنور وهو من يبيع الخبز للناس...

كان يخبز بمهارة أثارت اعجاب كل أهالي الجبيلة خصوصاً وأهالي الفاو عموماً، إذ يقوم بالتقاط (الشنگة) بحركة رشيقة سريعة ويلتقطها بذراعه وقد كبر حجمها خمسة أضعاف بحركة رشيقة ثانية ويدخلها للفرن. وكان (أبو قيس) وهي كنيته المعروف بِها في الفاو يمت لنا بصلة القرابة من جهة أخوالي (العنزة)، وهو في وقتها في ذروة عنفوانه،

له جسد كأنه أحد أبطال كمال الأجسام، وكان دوما يكشف عن ذراعيه أثناء العمل وكأنها كتل فولاذية...

في عصر أحد الأيام وقبل أذان المغرب ذهبت لشراء الخبز، وكنت زبوناً مميزاً لدى (أبو قيس) لأنني ابن من كان شريكاً لصاحب المخبز الحالي، حيث كان (أبو قيس) يقول لي عندما يراني وبدون تأخير (ها ماجد جم گرصة تريد)، وعندما يعطيني الخبز يقول لي (سلّم على ابوك وعلى عمتي أم ماجد)

في ذلك المساء كانت تقف بعض النساء لشراء الخبز مثل بقية الأيام، إلا أنه كان هناك اثنان من الشباب وهم يلبسون الچارلس ولهم شعر طويل (الخنافس) كما كان يطلق عليه في حينه، وكانا يمازحان احدى البنات وكانت هذه البنت من الجبيلة وهي شابة في مقتبل العمر، وكانت تريد شراء الخبز، بعدها قاما بمضايقتها، ويبدو أنهما ليسا من المنطقة نفسها. كان (أبو قيس) يعمل بيديه وينظر بعينيه. وفجأة ترك عمله وخرج إلى حيث يقف الناس لشراء الخبز. وتكلّم بهدوء مع أحد الشابين، ودخل مرة أخرى للمخبز ليكمل عمله، إلا أن عينيه كانتا حيث يقف الناس وتقف الفتاة ويقف الشابان المشاكسان. استمر الشابان بمعاكسة الفتاة مما جعل الفتاة تنوي العودة للبيت، وفعلاً تركت مكانها وحاولت العودة من حيث أتت، وبسرعة البرق فوجئ الجميع بقيام (أبو قيس) برمي (الشنگة) من يده وخرج حيث يقف

زبائن المخبز، وإذا بلكمتين منه فقط على وجهي الشابين أطاحت بهما أرضاً مع صياح (أبو قيس): (ولكم شنو ما عدكم عرض).

وهنا تدخّل الناس لمنعه من الاجهاز عليهما، ليقوما باستغلال تدّخل الناس وركضا بكل سرعتهما هرباً من لكمات أخرى قاضية من (أبو قيس).

نعم إن (أبو قيس) وكان اسمه (حبيب) ومخبز (عيسى بندر) سيبقيان في ذاكرة أهالي الجبيلة لأمد طويل.

.....

الشنگة: هي عجينة الخبزة المكورة قبل صفقها وادخالها للفرن..

التنانير: هي أفران طينية تستخدم لأغراض كثيرة ومنها صنع الخبز

الدهدار: هو المسؤول عن المنطقة المحصورة بين نهرين.... كانت هذه التسمية معروفه في الفاو... والدهدار هو ادارياً أقل من المختار

الگرصة: هي رغيف الخبز الناضج

٥

كان صباحاً خريفياً، وكنت طفلاً صغيراً، خرجت إلى الشارع أمام نهر الجبيلة المحاذي لبيتنا وكان طريقي إلى علوة عمي أبو ستار باتجاه حي عدن، وكنت أريد شراء (طبقة) لصور الفنانين من محل جارنا أبو نوري، إذ كنا نلعب بصور الفنانين وقتذاك لعبة الـ(طرّة كتبة). في الطريق سمعت كلمة ترددها جمهرة من الناس كنت أسمعها لأول مرة، كلمة غريبة لم تعتدها أذناي، (نغل)... لم أعرف ماذا يقصدون... كانت ضجة كبيرة في الشارع بالقرب من نهر الجبيلة... طفل حديث الولادة ميت تم رميه بالقرب من جرف النهر... مشيت يقودني فضول الطفل باتجاه تمركز الضجة... شاهدت شيئاً في الأرض ينظر إليه الناس... كان ضئيلاً جداً فلم أستطع تمييزه، كان ملفوفاً بخرقة بالية، وسمعت كلمات لم أفهمها في وقتها:

(حرام عليهم شنو ذنب هاي الروح)

(الله لا يوفقهم ليش هيچ يسوّون)

(الله انشالله يردها لشرفه اللي سوّاها)

رجعت إلى البيت حزيناً ولم اشترِ طبقة الصور من محل أبو نوري... كانت سنة ١٩٧٤...

في البيت سألت أمي بحزن: (يمّة شنو هو النغل، هسه طلعو نغل من النهر مالتنه، والناس خايفة منّه)

أجابتني أمي بهدوء: (شبيك يمّه لا تخاف، هسّه أطلع اشوف شنو صاير).

بعدها بسنين عرفت أن قد تم قتل نفس بريئة بسبب رغبة!

.....

الطبقة: اقصد بها ورقة كرتونية مستطيلة بطول ٣٠ سم تقريباً وعرض ٢٠ سم تقريباً تحتوي على ٢٤ صورة لفنانين إمّا أجانب أو فنانين مصريين أو من نجوم كرة القدم...

وكانت تباع بكثرة في ذلك الوقت، إذ كان الأطفال يقومون بقصّها إلى ٢٤ صورة ويتم اللعب بها (طرّة كتبة) أو بطرق أخرى.

٦

هذه الحكاية ليست مأخوذة من فيلم سينمائي، إنما هي قصة من الواقع...

بعد مغادرتنا قضاء الفاو يوم ١٩٨٠/٩/٢٤ إثر القصف الايراني المكثّف على القضاء، كانت وجهتنا قرية المخراق التي تبعد تقريباً ٢٠ كيلو متراً شمال مركز القضاء، بقينا في هذه القرية لغاية يوم ١٩٨٠/١٠/١٤ حيث أصبحت المخراق منطقة عسكرية بعد وصول القصف الايراني إليها.

كانت وجهتنا هذه المرة محافظة البصرة، حيث قام الوالد باستئجار سيارة مرسيدس ١٨ راكب ونقلنا مع بيت عمي إلى محافظة البصرة التي تبعد عن مركز قضاء الفاو نحو ١١٠ كيلو متر، ولم يوافق الوالد على الذهاب إلى بيوت الأقارب هذه المرة حتى لا نثقل عليهم، لذلك كان استقرارنا في إحدى المدارس في منطقة المعقل، بقينا في المدرسة لمدة يوم واحد، وقام أبي بعدها بنقلنا لأحد بيوت الميناء غير المسكونة، وبعد ذلك تركنا ورجع إلى الفاو لأنه كان موظفاً في الميناء وقد تم تكليفهم جميعا بواجبات الجيش الشعبي.

لم نبقَ في هذا البيت نحن وبيت عمي سوى أسبوع واحد فقط، إذ جاءنا الرفاق البعثيون وأبلغونا بضرورة مغادرة البيت فوراً، وكانت ذريعتهم أن البيت تحت المراقبة المشددة لأنه كان باسم مهندس ينتمي إلى حزب عميل وهارب حالياً!

وقام الرفاق بنقلنا نحن وبيت عمي (الأطفال والنساء) فقط لأن الرجال كانوا إما في الجيش او في الجيش الشعبي!

قاموا بنقلنا إلى مدرسة اسمها متوسطة الأبلّة للبنات في منطقة المعقل بجوار ما يسمّى بالسوق الأصفر.

كنا في هذه المدرسة ٦ عوائل فقط، كل عائلة تسكن في غرفة. وكان في المدرسة قاطع للجيش الشعبي قادم من محافظة العمارة.

التراجيديا حدثت في هذه المدرسة!

في الساعة ٣ من ظهر يوم ١٩٨٠/١٠/٣٠ وكنا جالسين أمام باب المدرسة حدث الآتي:

فوجئنا بشخصين على دراجة نارية تلاحقهم العديد من السيارات مع رمي إطلاقات نارية، قفز الاثنان من الدراجة، وتسلّقا بسرعة سياج المدرسة وكانا يحملان مسدسات، ارتبكنا وهرب كل منا إلى غرفته.

كان الرمي من كل الجهات...

فجأة دخل أحد الشخصين إلى الغرفة التي نسكنها وبيده المسدس بعد أن دفع الباب بقوة... صرخت والدتي، وهنا تكلم هذا الشخص

وكان شاباً يافعاً وقال (لا تخافون هسه نطلع من المدرسة، عدنا حساب ويه البعثيين وجاي نصفّيه!)

بعد ذلك سكت الجميع مع خوف شديد لما من الممكن أن يحدث...

بعد لحظات قام الشاب بترك الغرفة، بعد أن توقف إطلاق النار لمدة قصيرة...

وقاما بترك المدرسة وتسلقا إلى مدرسة مجاورة اسمها متوسطة البتول...

تم تطويق المدرسة التي نسكنها والمدرسة المجاورة بكل القوى الأمنية واستمر القتال أكثر من ساعتين، وتم فيه استخدام القنابل اليدوية والقاذفات والقنابل المسيلة للدموع...

وكنا نتابع المعركة...

حتى التجأ الشابان إلى بيتونة المدرسة في الأعلى...

عندها سمعنا من الرفاق بأن قد تم قتل أحدهم واعتقال الآخر بعد اختناقه بالدخان..

القصة التي رواها لنا الرفاق من أهل العمارة هي:

قيام عناصر من حزب معارض بمهاجمة فرقة حزبية وقتل وجرح بعض عناصرها...

بعدها قام الرفاق بنقلنا إلى مدرسة أخرى حفاظاً على سلامتنا!!!

٧

بعد هروبنا من مركز قضاء الفاو يوم ١٩٨٠/٩/٢٤، إثر سقوط القذائف الايرانية على الفاو، كانت وجهتنا هي قرية المخراق وهي مسقط رأس ابي وأجدادي، وتقع إلى الشمال من مركز القضاء بمسافة ربع ساعة في السيارة....

كنا قرّرنا أن نكون ضيوفاً في بيت أقاربنا عبد الله داوود، وكنا خمس عوائل...

بيت أولاد عم الوالد وخال الوالد وخالتي بالإضافة إلى عائلتنا... استقبلنا العم عبد الله بكرم كبير وكان عددنا نحو ٤٠ شخصاً...

وكان بيته كبير المساحة ومبنياً من الطين وفيه حوش كبير وغرف عديدة وكان البيت محاطاً بالنخيل، ويقع بمحاذاة نهر يتفرع من شط العرب... تم تجهيز غرف للرجال وغرف للنساء...

وكان هناك نظام... الاستيقاظ فجراً مع الأذان لغرض الصلاة والإفطار الذي يتكون وقتها من رغيف خبز مع قدح شاي أو حليب، وذلك بسبب الظرف الطارئ...

أما الغداء فكان وجبة ممتازة فيها لحم...

والعشاء كان إما بطاطا قلي مع الطماطم أو الباذنجان...

وبعد العشاء كان النوم إما في السابعة أو الثامنة مساء...

مضى الأسبوع الأول هادئاً...

أما الأسبوع الثاني فشهد وصول القصف الايراني لقرية المخراق...

وتم قطع الكهرباء كون المنطقة أصبحت أرض حرام، لذلك ابتدأ التحذير من أي انارة في الليل خشية القصف...

لكن خالتي أم علي كانت من المدخنات الشرهات، بحيث أنها تركت الغرفة في احدى الليالي وكانت بيدها سيكارة، وصادف في الوقت ذاته أن العم جليل وهو شقيق صاحب البيت الذي نحن في ضيافته وكان أيضاً هارباً من الفاو إلى المخراق مع عائلته، ترك غرفته واخذ يتمشّى في حوش البيت وبيده فانوس، وإذا به يصيح على خالتي بصوت سمعه الجميع (ولچ أم علي، ولچ طفّي الجكارة هسه تصيح الصيتية (صفارة الإنذار)... ولچ طفيها، ولچ هسه ننقصف من وراچ) على حساب أن الضوء في المناطق الحربية يعد هدفاً للقصف...

فقامت خالتي بسرعة بإطفاء سيكارتها إلا أنها صاحت به (ولك جليل من ورا فانوسك صواريخ الدنيا راح تطيح فوگ روسنا)

وهنا انتبه العم جليل إلى نفسه، فولّى هاربا للغرفة مع فانوسه...

ليلتها كان موعدنا مع النوم متأخراً جداً، لأننا نسينا القصف الايراني وبقينا نضحك كثيراً على مفارقة خالتي أم علي والعم جليل.

٨

لي عم واحد فقط هو عمي المعروف في قضاء الفاو بـ(أبو ستّار) شقيق والدي الأكبر، واسمه جابر، ومعروف في الفاو باسم (جبّار مسلّم)، وكان يعمل في ميناء الفاو ويمتلك علوة هي الأكبر في القضاء لبيع التبن والبردي والقصب والحلفاء، وكان لديه محل لتجارة المواد الغذائية وهو يعد من ميسوري الحال جداً في القضاء...

ذاكرتي لا تنسى هذا الموقف أبداً، وكان في بداية السبعينات...

كان عمي أبو ستار، ذلك الرجل صاحب النكتة، الضحوك والطيب القلب جالساً في محلّه لبيع المواد الغذائية في منطقة الجبيلة في الفاو، وكنت مع والدي عندما ذهبنا عصراً معاً لمحل العم لأن الوالد كان ينوي أن يتكلم مع عمي بموضوع معين...

وعندما وصلنا للمحل كان هناك شخص بعمر والدي تقريباً يتجادل مع عمي في شأن يخص البيع والشراء، وفجأة تصاعد الجدال بينهما إلى الحد الذي جعل عمي يخرج عن طوره وقام بالتجاسر على الرجل حتى أهان كرامته وحاول ضربه بشيء كان في يده، مما جعل الرجل ينظر إلى والدي وقال بصوت كسير وكأنه يريد أن يبكي شاكياً: (شفت حميد، يصير هيچ جبّار أخوك يهينّي)!

لم يرد والدي بكلمة...

وبعد ساعة أو أكثر تم استدعاء والدي لمركز شرطة الفاو... ولم يعرف الوالد في البداية سبب الاستدعاء...

وعندما ذهب إلى المركز عَلِم أن الرجل حرّر شكوى ضد عمي وعندما طلب مأمور المركز شاهداً، أخبرهم أن الشاهد أخوه الأصغر حميد، وسط دهشة الضابط الذي بادره قائلاً (انت مجنون! هل يشهد أخ ضد أخيه الأكبر؟!)

عندما وصل والدي للمركز قال له الضابط: (بحظّك وبختك، احچي الصحيح)

فأجابه: لا أحتاج لأن تلزمني (بالحظ والبخت)، وشهد بالحق ضد عمّي لصالح المشتكي! وبعد أن قبَّل يد عمي أمام ضابط المركز... والضابط يعرف الجميع طبعاً...

يقول والدي: إن المشتكي وهو أحد رجالات الفاو المعروفين، دمعت عيناه أمام الضابط وتنازل عن شكواه وقال للضابط (مو گتلك حميد راح يشهد بالحق)

الجميل في القصة إن عمي بقي مستاءً من والدي مدة طويلة بعد هذه القصة، إلا أنه بعد ذلك جاء لزيارة والدي وقال له (تبقى أنت أخوي الزغيّر) وقام أبي بتقبيل يده... لأن عمّي كان يعرف بشكل واضح بأنه

قد أساء للرجل، وسمعت بعد سنين إن عمي وقتها زار الرجل واعتذر اليه بسبب تجاوزه، فهو كان طيب القلب جدا.

٩

للتوثيق لا بد أن اشرح لنفسي حتى لا أنسى! وكذلك للأجيال القادمة من أبناء مدينة الفاو، إذ عليهم أن يتعرفوا كيف عاش آباؤهم وأهاليهم! قضاء الفاو يتكون من مركز القضاء الذي يتضمن مركز ميناء الفاو مروراً بكل الدوائر الرسمية ابتداء من القائمقامية إلى كل الدوائر الرئيسية الأخرى يحدها من الجنوب قرى ما يُعْرَفْ باسم (الفاو الجنوبي) بكل أحوازه العديدة انتهاء بمفتاح الخليج العربي رأس البيشة، ويحده من الشمال القرى الآتية وبحسب الاتجاه شمالاً (الفاو الشمالي، المعامر، المخراق، البحار، الفداغيّه، الدواسر)، وقرية الدواسر هي الحد الفاصل بين نهاية قضاء الفاو وبداية قضاء أبو الخصيب...

مدونتي تتحدث في جلها عن مركز القضاء...

في مركز القضاء كان هناك ثلاثة مساجد رئيسة:

أولاً: المسجد المعروف بمسجد السوق، وكان يقع في بداية سوق الفاو الكبير وهو معروف بأنه مسجد (السنّة).

ثانياً: مسجد الشيخ (محمد الفضلي)، وكان يقع بمحاذاة شط العرب تماماً قريباً من بيت مختار الفاو (عبد القادر عمران) وكان المسجد معروف بأنه للشيعة الجعفرية.

ثالثاً: مسجد (الشيخ جاسم)، وكان معروفاً بأنه للشيعة الإخبارية، ويبعد عن بيتنا ٥٠٠ متر تقريباً في منطقة الجبيلة.

أما مساجد الفاو الجنوبي والفاو الشمالي وبقية قرى الفاو والحسينيات فإنها عديدة ولكني لست بصددها الآن.

الحكاية تبدأ الآن...

لا أتذكر السنة، ولكنني أتذكر أنني لم أكن في المدرسة وقتها، الزمن هو بداية السبعينات، كان يوماً غير طبيعي والفاو مرتبكة، سمعت من الكبار إن (الشيخ جاسم) صاحب جامع الشيعة الإخبارية مات بسبب السرطان...

من الصعب أن أنسى أعداد الناس المهولة التي تجمعت بالقرب من مسجد (الشيخ جاسم) للمشاركة في التشييع، الذي كان مَهيباً، وأتذكّر وأنا طفل أن كل أهل الفاو بكته وليس فقط الشيعة الإخبارية، لأن كل أهالي الفاو شاركوا بتشييعه، والفاو كانت خليطاً متجانساً بشكل غريب (شيعة، سنّة، مسيح، صابئة) وغيرهم...

رحم الله (الشيخ جاسم). كان والدي يحبه كثيراً، ويقول إنه كان صديقاً حميماً لجدّي (الملاّ مسلّم).

١٠

لا يوجد شخص عاش في الفاو قبل العام ١٩٨٠ سواء من مركز القضاء أو من القرى المحيطة به إلا ويتذكر (سلمان).

حينما كنت طفلاً، كنت أسمع الناس تتحدث باسمه، وقتها كانت تنتابني أحاسيس متناقضة...

سمعت باسمه فقط ولم يكن لي نصيب أن أراه في طفولتي.

كان صاحب المحل الوحيد لبيع المشروبات الكحولية في مركز قضاء الفاو، ويقع محله في مكان بالقرب من سوق الفاو الرئيس...

لا أريد أن أخوض في تفاصيل كثيرة لحساسية الموضوع...

ولكن أذكر موقفاً حصل لي في طفولتي مع هذا الاسم! (سلمان).

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة في منتصف السبعينات وكنا عائدين من منطقة الفاو الجنوبي حيث كان والدي في زيارة لأحد أصدقائه الذي يسكن في أحد (الأحواز) في الفاو الجنوبي واعتقد كان (حوز نوكال)، وكان الوالد يستخدم الدراجة الهوائية (البايسكل) في هذه الزيارة، إذ أركبني معه على (البايسكل) ذهاباً وإياباً للفاو الجنوبي...

وفي طريق العودة مررنا بالقرب من محل (سلمان) حيث يكون محلَه في طريق عودتنا. وهنا توقف الوالد بسبب ضجة كبيرة كأنها مشاجرة قرب محل (سلمان).

وحين استفسرت من الوالد عن سبب توقفه، قال لي (لا تخاف خل اشوف يمكن صايرة عركه يم محل سلمان)، وكانت الناس تتدخل في هكذا مواقف على فرض أن كل أهالي الفاو عائلة واحدة.

تركني والدي واتجه حيث مكان الضجة وبقيت أنا بالقرب من (البايسكل)، ورجع بعد لحظات وهو ضاج بالضحك وبصوت عال، وكان يدمدم: (احترگ ابليسك مرزوگ على هالدگه).

ولم أفهم ما يقصده والدي وقتها، ولكن بعد ذلك فهِمت أن (سلمان) لم يقبل أن يأخذ مبلغ (ربعية) العرق من (مرزوگ الحمّال) لأن البعض أخبر (سلمان) أن (مرزوگ الحمّال) لم يرتزق هذا اليوم... وكان (مرزوگ الحمّال) معروف بطيبته وعفّة نفسه لدى كل أهالي الفاو وبما انه كان مدمناً على شرب (العرق) لذلك أراد سلمان أن يتعامل معه بنبل وكرم، وقال له (فلوس ربعيتك واصلة).

فما كان من مرزوق إلا أن رفض هذا الكلام...

وأصر سلمان على أن (الربعية) على حسابه هذه المرة...

وإثر شدٍ وجذب بينهما ضج المكان وتدخل بعض الناس ممن كان متواجداً لإقناع سلمان بأخذ الثمن من (مرزوگ)، ويبدو أن والدي وصل أثناء هذه الأزمة التي حصلت قرب محل (سلمان)

.....

الحوز لدى أهالي الفاو وقتذاك هو الحي المحصور بين نهرين...

١١

(آنه طير أخضر
أمشي واتفكّر...
ماما ذبحتني...
ودّتني لبابا...
بابا أكلني...
اختي العزيزة...
لمّتْ عظامي...
چلبي الزغيّر...
يلحس بدمّي)

كان بيتنا يقع في ركن الشارع، قرب نهر الجبيلة، ويبعد عن قائمقامية القضاء نحو ٥٠٠ متر. يمر نهر الجبيلة أمام بيتنا تماما، هكذا هو المشهد حينما فتحت عيني للدنيا في بداية السبعينات...
في أيام الصيف كنا نلتقي في الشارع أمام بيتنا مع أطفال الجيران، لنشكّل صفوفاً منظّمة، كل صف بطفلين، بحيث تصل الصفوف أحياناً إلى عشرة، أي يصل عدد الأطفال إلى العشرين طفلاً...

كنّا نأخذ الشارع ذهاباً واياباً عشرات المرّات ونحن نمشي بشكل مسيرة شبه نظامية لنردّد الكثير من الأناشيد والفولوكلورات... مثل:

(عندي ديچ مامرسي

گاعد يلعب عالكرسي...

جبت الموس وذبحته

شويّة ماي شرّيته).

أو

(حجنجلي بجنجلي

صعديت فوق الجبل

لگيت قبّة قبتين

صحت ياعمّي بوحسين

هذا مقام السلطان...

شيل زرّك يالحصان)

وكثير غيرها...

لكن في وقتها لم أكن أتألم إلاّ للنشيد الذي ذكرته في أوّل المدونة.

كان يتملكني الحزن عند سماعه لفكرة أن تقوم أميّ بذبحي ويقوم أبي بأكلي وتقوم أختي بلملمة عظامي!

ووقتها سألت أختي الكبرى عن معنى هذه القصّة، فأجابتني بأنه مجرد نشيد لتسلية الأطفال!

وبعد سنين، أي بعد الحرب العراقية الايرانية، وبعد أن ابتدأت أقرأ بعمق وأسأل، فهمت من زوج أختي (وهي الأخت نفسها التي سألتها وأنا طفل)، إذ كانت قد تزوجت بعد الحرب العراقية الايرانية، فهمت من زوجها، وهو انسان مثقف كبير، بأن ما كنّا نردده (آنه طير اخضر) ...الخ، هو مقطع شعري مهم من المسرحية العظيمة (فاوست)، للفيلسوف الألماني (غوته)!

هذه المسرحية التي عدّها بعض النقّاد أهم من كل مسرحيّات شكسبير، بل أهم مسرحية تمت كتابتها عبر التأريخ!

١٢

الذاكرة تملؤها الصور، وهي مزدحمة بالأحداث، لكن تبقى للطفولة ذكريات وزغاريد وأفراح...

كان (الفاو) وهو ذلك القضاء القصي، جنوب العراق شمال الخليج، يمتلك من الحكايات ما يعجز عن خطه القلم، وكان فيه بحسب ذاكرتي الطفولية ثلاثة دور للسينما... أحد هذه الدور كانت عائدة لشركة النفط، والثانية كانت عائدة لميناء الفاو، والثالثة أهلية بحسب ما تسعفني به الذاكرة...

وكان هناك من يروّج لهذه الدور والأفلام التي تعرضها بواسطة رفع لافتات للأفلام والتنقّل بها من شارع لآخر...

وكان أحد هؤلاء الأشخاص الذين ينادون دعايةً لهذه الأفلام شخصاً يعرفه أهالي الفاو اسمه (هاء).

ولا أزال أتذكر هتافه وهو يمشي في شارعنا في الجبيلة في بداية السبعينات وهو ينادي: (فلم كاوبوي، عصابة وزنوج، فلم كلّه بوكسات، كلّه مسدسات، كلّه بوس، بطل الفلم يلعب بالعصابة طوبة، الفلم بيه كلّشي وكلاشي، يالله أهل الجبيلة تعالوا شوفوا الفلم).

ومرة أتذكّر كان فلم عربي بطولة فريد شوقي، فسمعنا صوت (هاء) يصيح: (تعالوا شوفو فريد شوقي راح يطيّح حظ العصابة ويشگ حلگ محمود المليجي وتوفيق الدقن).

وفي أحد الأيام سمعت من أولاد الجيران أن سينما (شركة النفط) تعرض فلم كاوبوي، لذلك طلبت من والدي أن يأخذني للسينما، ولم أكن سُجلت في المدرسة وقتها، فرفض والدي، فبكيت كثيراً، ووالدي لا يوافق، حتى قام بإقناعه جارنا (أبو وليد) وقال له انه سيأخذ ابنه (رياض) أيضاً للسينما وكم كانت فرحتنا عظيمة أنا ورياض إذ كانت أعمارنا متقاربة... وكان فيلماً جميلاً لن أنساه ما حييت...

عرفت بعد سنين إنه كان فلم (يوم الغضب) لجوليانا جيما...

الغريب أن البصرة في الثمانينات كان فيها أربعة دور للسينما فقط، بينما، وفي ذلك الوقت كان يوجد فقط في مركز قضاء الفاو الذي لا يتجاوز عدد نفوسه عشرة آلاف نسمة! ثلاثة دور سينما! مفارقة غريبة تعكس أهمية هذا القضاء كونه أهم منفذ للعراق بالمقارنة مع محافظة البصرة!

١٣

أتذكر دائماً أيام الاستعراضات المدرسية التي كانت تقام في ملعب الفاو في السبعينات، وأتذكر أنني قمت بالمشاركة في أحد هذه الاستعراضات في العام ١٩٧٧ عندما كنت في الصف الرابع الابتدائي في مدرسة الأحواز الابتدائية للبنين، وحديثي الآن ليس عن مشاركتي في هذا الكرنفال الكبير، إنما أنا بصدد الحديث عن استعراض حضرته كمتفرّج في بداية السبعينات عندما كنت طفلاً صغيراً خارج المدرسة في ذلك التأريخ.

عندما أخذني والدي لمشاهدة هذا الكرنفال الكبير إذ لم تكن عائلة في مركز القضاء وفِي القرى القريبة من المركز، إلا وتأتي لمشاهدة هذا المهرجان الكبير، فيكتظ الملعب بالناس، والناس الواقفة على أقدامها أكثر بكثير من الناس الجالسة، وبعض الناس تكون سيئة الحظ لأنها لم تحصل على مكان لمشاهدة أبناء القضاء وهم يتسابقون في مختلف ألعاب الساحة والميدان، لأجل نيل كأس الفوز لمدارسهم.

كان التسابق رائعاً وجميلاً لمدارس البنين والبنات لمختلف المراحل، فالبنات يتنافسن في سباق الجري وسباق البريد وفِي ألعاب الزانة والقفز وفِي مختلف الألعاب تماماً كما البنين.

كنت سعيداً وقتها وكان والدي ممسكاً بيدي لأشاهد هذه المتعة الخلاّبة، وكنت أتمنى أن أكون في داخل الملعب لأشارك في سباق (القفز العريض).

وقبل انتهاء المنافسات وكأنها منافسات الألعاب الأولمبية وليست كأنها في مدينة هي تمثّل اقصى جنوب العراق حيث الشط والخليج والبحر، نعم هكذا كانت الفاو... أقول قبل انتهاء المنافسات وانتهاء الاستعراض، أخذني والدي من يدي وقال لي انه قد آن أوان العودة للبيت، ومع حزني الشديد لأنني سوف لن أشاهد مراسيم تسليم الكؤوس، استسلمت للأمر الواقع وخرجنا من الملعب أنا والوالد، وصوت مايكروفون الاستعراض يرن في أذني ويصل للشارع العام.

ونحن في الشارع القريب من الملعب شاهدت بعض البنات وقد تركن الملعب أيضاً وهنّ يرتدين البنطلون الجارلس، والبعض منهن يرتدين الميني جوب.

حصل وقتها موقف بقي في ذاكرتي.

كان أحد الشباب خارجاً من الملعب أيضاً وكان ذَا شعر طويل جداً (خنافس) ويلبس قميصاً ضيّقاً مفتوحاً من الصدر وبنطلون جارلس يمشي خلف واحدة من تلك الفتيات...

الصورة غير واضحة في ذهني...

لكن أتذكر أن والدي وقف وأمسك الشاب من يده وتكلَّم معه بكلام لا أتذكره، ولكن الشاب نظر إلينا بخجل ومشى لوحده وكان خط سيره هذه المرّة ليس باتجاه البنات صاحبات الجارلس والميني جوب...

١٤

قرية المخراق تبعد عن مركز قضاء الفاو بضعة كيلومترات تقطعه السيارة في وقت لا يزيد عن الربع ساعة...

كان مسقط رأس الوالد في هذه القرية، وكان جدّي الملاّ (مسلَّم)، رجل دين ورع ومن وجهاء قرية المخراق، إلا أنه قرر الانتقال بعائلته في نهاية الثلاثينات إلى مركز قضاء الفاو الذي كان حديث النشوء، وذلك بعد تسلم ابن عم جدي وخال والدتي (محمود رحيم زاده) المسؤولية الأولى في القضاء ضابطاً لمركز شرطة الفاو والقائم بمهام الحاكم العسكري فيه وقتذاك، ولنهاية وجود هذا الرجل (محمود رحيم زاده) في الفاو قصّة لست بصددها الآن!

نشأ الوالد وترعرع في مركز قضاء الفاو حتى كان أحد وجهاء الفاو في السبعينات ولكن بقيت جذور الأهل والأقارب في المخراق...

وكان من أهم وجهاء ورموز قرية المخراق شخص من أقارب الوالد لجهة (محمود رحيم زاده)، اسمه (محمَّد مصيّب) وكان شخصاً مهاباً وله حضور، وكان خطيب المنبر الحسيني في قريته وله حسينية خاصة به، وكان يستخدم المنبر وسيلة للتنوير...

الحاج (محمد مصيّب) كان يزور مركز قضاء الفاو بين فترة وأخرى، وكان استقراره ومبيته في بيتنا وضيافته بالكرم البرمكي أيضاً، وكانت علاقته بوالدي حميمة جداً، وكان حديثهم للسامع مهماً وجميلاً وعذباً، لا أزال أذكر ليلة من ليالي الصيف من العام ١٩٧٤ وكان الحاج (محمد مصيّب) نائماً عندنا في البيت، ولم نكن نعلم أن هذا الرجل مراقب أمنياً عدا الوالد الذي كان يعرف كل شيء، استيقظنا أكثر من ثلاث مرات على طرقات الباب من قبل أشخاص فهمت أنا بعد مدة أنهم رجال أمن، وكان هذا الإزعاج متعمد للإيحاء إلى الوالد أنكم مرصودون، وكان كلام رجال الأمن مع الوالد في كل مرة استفزازياً، وفِي الصباح تم استدعاء الوالد إلى أمن الفاو، لتبليغه بعدم استضافة الحاج (محمد مصيّب) في بيته لأنه لا يسير في خط الثورة! وانه يستخدم المنبر الحسيني للترويج لليسار! وفِي حال استضافته فإنه سيتحمّل تبعات ذلك...

لم يستجيب الوالد لهم وبقي الحاج (محمد مصيّب) ضيفاً عزيزاً علينا، وتحمّل والدي مضايقات عديدة نتيجة لإصراره على استضافة قريبه وصديقه حتى تم تسفير الحاج (محمد) مع عائلته إلى إيران في شهر حزيران من العام ١٩٨٠ بتهمة التبعية لإيران...

علماً إنه كان مختاراً لقرية المخراق لعشرين سنة وهو من يوقّع على منح الجنسية العراقية للعراقيين من أهل القرية!

١٥

في بداية السبعينات في مركز قضاء الفاو وفي منطقة الجبيلة تحديداً كانت توجد مقبرة صغيرة تبعد عن بيتنا نحو ٣٠٠ متر، وكان فيها قبر تؤمه الناس للزيارة ويسمى قبر (سيد غريب)، ولهذه التسمية قصّة لسنا بصددها الآن... هذه المقبرة ازالتها الدولة نهاية السبعينات لأسباب ادارية وهي تطوير مركز مدينة الفاو، وكانت هنا أيضاً قصص حول عطل الجرافة (الشفل) الذي أراد ازالة قبر (سيد غريب)...

الحكاية يعود زمنها إلى ما قبل إزالة المقبرة، تقريباً العام ١٩٧٣...

كنت طفلاً صغيراً... وكان الأهالي يتجنّبون السير ليلاً بالقرب من هذه المقبرة وذلك لاعتقادهم بوجود أرواح تظهر ليلاً وتسبب الرعب وأحيانا الجنون لمن يمر بالقرب من هذه المقبرة في الليل... وكم سمعنا بأفراد أصيبوا بالجنون بسبب هذه المقبرة!

وكان لي نصيب مع هذه المقبرة وكدت أن أصاب بالجنون فعلاً وأنا طفل صغير، ففي ليلة من ليالي الشتاء وكنت في بيت جارنا (أبو وليد) وبعد انتهاء مسلسل طرزان الذي كان يبثه تلفزيون الكويت وقتها، وكانت ليلة ممطرة، قررنا بشكل تآمري أنا وابن جارنا (عواد) أن نكون شجعاناً ونمر على المقبرة ونتحدى الخوف.

وكان من عادة الجيران في قضاء الفاو وقتها أنهم يوصلون ضيوفهم من الجيران ليلاً إلى بيوتهم وذلك لشدة الظلام في هذه المناطق وخصوصاً في ليالي الشتاء، لذلك أمر (ابو وليد) ولديه (رياض) و(عواد) بإيصالي رغم أننا جيران الحائط لصق الحائط.

مؤامرتنا لم يكن يعلم بها (رياض)، ولكنه تشجع معنا وقال أنا معكم وليكن ما يكون...

مشينا بخطوات شجاعة باتجاه المقبرة، وفجأة ظهر لنا خيال من بعيد، عملاق يحرث في المقبرة... وبدون شعور قمنا بالصراخ والجري بسرعة رهيبة كالمجانين بحيث لم تسعفنا جزماتنا المطرية ووقعنا ثلاثتنا في الوحل، ولم نصل إلى بيت (أبي وليد) إلا ونحن أشبه بالأموات من شدة الخوف، وكذبنا على (أبي وليد) ولم نخبره أننا ذهبنا للمقبرة انما اخبرناه اننا شاهدنا (طنطلاً) في الشارع يحفر في الأرض، فأخذ (أبو وليد) المصباح (اللايت) للإضاءة وخرج للشارع، وفعلاً شاهد (مرزوگ) وهو الشخصية الفاوية المعروفة الذي يعمل حمّالاً بعربة يد، شاهده وهو يسحب عربته وبيده بطل العرق الذي لا يقع من يده أبداً، وهو متجه إلى المكان الذي سينام فيه، وكان مرزوگ عائداً من سوق الفاو مروراً بمقبرة (سيد غريب)...

.....

استدراك: مرزوگ كان ينام أكثر أوقاته في عربته فهي بيته... وكان إنساناً شريفاً عفيفاً ومحل ثقة كل أهالي الفاو، وكان ذا نفس أبيّة كبيرة... لذلك لا أعرف إلى أين كان متجها بعربته في تلك الليلة المطيرة من العام ١٩٧٣...

١٦

أهالي الفاو وتحديدا أهالي مركز قضاء الفاو... عندما يتحدثون عن الفاو يتذكرون علوة (أبو ستّار)، و(العلوة) بمفهوم أهالي الفاو في ذلك الوقت هي المكان الذي تباع فيه مواد البناء للبيوت الطينية وبيوت القصب وقتذاك...

وكانت هذه (العلوة) الشهيرة في الفاو وفي منطقة (الجبيلة) تحديداً تقوم ببيع القصب والبردي والتبن والحلفاء وغيرها من هذه الأمور... وقد تنقّلت من مكان لآخر...

أبو ستار... المعروف لدى أهالي الفاو باسم (جبّار مسلَّم)، هو عمي، الشقيق الأكبر والوحيد لوالدي واسمه (جابر)... وكان من ميسوري الحال في الفاو... وبيته كان من أجمل البيوت في الجبيلة، مبني على الطراز الحديث من الطابوق الحر، ومساحة حديقة بيته كانت تقريباً ألف متر، وكأنها جنّه من الجنان... إضافة إلى مساحة بيته التي هي أكثر من ألف متر...

كان عمي من الناس المحبوبين وأصحاب النكتة والطرفة، يحب الضحك ويعشق الناس... كان يعمل في التجارة بالإضافة إلى علوته

وإلى عمله في ميناء الفاو العملاق وقتذاك... وكان مرزوقاً جداً، وبِعد من أثرياء الفاو وقتها...

كان لي النصيب أن أشهد جزءاً من تأريخ (علوته) التاريخية في أواخر أيامها... كنا نذهب يومياً إلى (العلوة) أنا وابن عمتي سعد وابن عمي فالح، لنقوم بخدمة العم في طلبات (علوته) التي لا تنتهي... وكنا فرحين ونحن أطفال نتقافز بين تلال التبن والحلفاء... ولكن، كان مركز قضاء الفاو في موعد مع نهاية هذه (العلوة) في ضحى أحد الأيام في بداية سبعينات القرن الماضي... كان الناس في موعد مع حريق هائل غطّى دخّانه كل مركز القضاء... احترقت (العلوة!!) ولا أحد يعرف سبب الحريق!

الحريق أكل كل علوة عمي (جبّار)...

واشترك الكثير الكثير من أهالي الجبيلة في إطفاء هذا الحريق، ولكن من دون جدوى، الحريق أكل كل شيء، كل شيء...

قال البعض، إن الحريق كان بفعل فاعل، لكن عمي (جبّار) نفى ذلك جملة وتفصيلاً... وقال: أنا كنت السبب في الحريق وذلك بسبب جمرة من دخان سيجارتي!! ولم يقل أكثر من ذلك... كم كانوا كباراً...

وانتهت (علوة) عمي جبّار بعد هذا الحريق!

١٧

شتاء العام ١٩٧٥ وكنت في الصف الثاني الابتدائي في مدرسة الأحواز الابتدائية في قضاء الفاو، كانت ليلة ممطرة وكان المطر ينزل بشكل مخيف ومكثّف وكأنه ينزل من حنفيات مفتوحة بسرعة مهولة، وكان البرق والرعد مخيفين...

لا أتذكر كم كانت الساعة عندما استيقظ جميع من في البيت على صوت والدي العالي وهو يتكلم مع والدتي حول شخص يطرق الباب بعنف وقوة في هذا الجو المرعب... نظرت إليه وهو يستعد للخروج من الغرفة وكان لابساً (روب مطري) ومعه مظلة لتقيه من المطر، لأن بيتنا كان عبارة عن (حوش) والمطر ينزل في منتصفه...

خرج أبي وبقيت أنتظر مع أمي ومع الجميع لنرى من هو هذا الطارق في هذا الجو الرهيب...

رجع والدي بعد لحظات، ليقول إن (أم فلان) التي تسكن في منطقتنا تقف على الباب في وضع مزري، وبيتها قد غرق في مياه الأمطار إذ أن سقوف الغرف لم تستطع أن تمنع تسرب الماء إلى الغرف، وبما أن لديها أطفال صغار وزوجها في العمل، في البواخر التي تعوم في مياه شط العرب والخليج العربي، حيث كان العمل بالشفتات لبعض عمال

ميناء الفاو، أسبوع بأسبوع، ولم تجد من جيرانها غير (أبو ماجد) الذي تحترمه كما تحترم بقية جيرانها لينقذ أطفالها من موت محقق...

قام الوالد ولبس جزمته لتقيه من الاوحال، ولأنني كنت مدللاً لديه أصررت أن أذهب معه، مانع في أول الأمر، ثم وافق أمام توسلات ابنه المدلل...

ألبستني والدتي الروب اتقاءً للمطر وزودتني بمظلة مع جزمة قدم وهي غير راضية عني وعن موافقة أبي في مرافقته في هذه المهمة...

عندما خرجنا من البيت قام أبي بطرق أبواب ثلاثة من جيراننا ليوقظهم كي يساعدوه في هذه المهمة... وفعلاً خرج معنا جيراننا، (أبو وليد) و(خالي أبو حسين) و (ابو بدر).

وقام الأربعة بإنقاذ جارتنا وأطفالها من موت أو كارثة حقيقية...

وعندما كبرت في العمر عرفت لماذا أصر أبي أن يستعين برجال الجيران، ولماذا وافق أن يأخذني معه في هذا الجو العاصف لإنقاذ امرأة شابة جميلة جعلتها الظروف أن تكون لوحدها مع أطفالها الصغار في جو ممطر عاصف مخيف...

١٨

في سبعينات القرن الماضي، وفِي أيام وليالي الصيف تحديداً، تكون هناك نكهة خاصة لأهالي قضاء الفاو في أيام الحر وأيام الرطوبة اللذيذة والجو الحلو الذي لا يعرفه سوى من عاش تحت مظلة النخيل الرهيبة والمصدات الهائلة من الأشجار...

يكون الجو مفعماً بالعاطفة والحنين... وهنالك شخصيات في هذا القضاء الهادئ كان لها حضور في الصيف تحديداً... شخص طيب أتذكره كان يعمل صباغاً... شخص بسيط، أسمر المحيّا، أتذكر أنه كان في الأربعينات من العمر وقتها... لا يكاد يرفع رأسه عندما يمر في الشارع خجلاً من أن تكون امرأة خارجة من بيتها... اسمه (هاء)!

وكان يعاقر الخمر بشكل شبه دائم. كان شط العرب ملاذه في ظهاري الصيف القائظ كما كان الشط ملاذاً في الصيف لكل أهل الفاو...

كان (هاء) يسبح في الشط ومعه (چوب كبير)، أي ما يشبه حالياً الطوافات التي يتم استخدامها في السباحة... كان يومياً يستلقي على (الچوب) ووجهه للسماء، واضعاً خشبة على عرض الچوب تمر من فوق بطنه، ويضع على الخشبة بطل العرق الذي يشتريه من محل (سلمان) الشهير في قضاء الفاو وقتذاك، ويضع بجانب بطل العرق

(طاسة) المزة الكبيرة التي تتكون عادة من الجاجيك (الخيار مخلوطاً باللبن الرائب)، وبجانب طاسة المزة... يضع جهاز التسجيل (الريكوردر) وفيه كاسيت لأم كلثوم، ويكون عادة إما أغنية (يامسهرني) أو (الأطلال)...

وكنا نسمعها عندما ينطلق برحلته في شط العرب وهو ممدد على (الچوب) ويأخذ معه أحياناً وجبة طعام بسيطة، (ساندويتج) مثلاً...

كانت رحلة (هاء) تبدأ ظهراً من الحديقة المسماة حديقة (الخليج العربي) وهي حديقة جميلة جداً في مركز قضاء الفاو، ويتجه جنوباً باتجاه الخليج العربي مع (الجزر)، يسبح في الشط مع (چوبه وعرقه وأم كلثوم ومزته)، وكأنه يعتلي أرقى يخت في الدنيا مبحراً في شط العرب، وتحديداً من منتصف الشط، ويسلطن حتى يختفي عن أعيننا...

ويراه الناس مساءً أو في الليل عائداً إلى الفاو مع (المد)... وعند عودته يكون بطل العرق قد نفد مع المزة ووجبة طعامه البسيطة كذلك...

كان (هاء) حكاية لنا نحن الأطفال، وقصّة نتداولها دائماً، وكان الكبار يحترمونه لأخلاقه العالية... كان جميلاً ونقياً ونظيفاً ومحبوباً، عاش بلا ضجيج...

١٩

مات في بداية السبعينات... مات طفلاً... بعد أن فاجأه مرض صعب... كان أقرب صديق لي في الطفولة...

يفصل بيتنا عن بيته بيتين فقط في ذلك الشارع المطل على نهر الجبيلة، في الفاو...

كنا لا نفترق أبداً ... وعشنا كأننا أخوان... كان الابن الأكبر لابنة خالي (علي) الكبرى، وكنا بالعمر نفسه... كان طفلاً جميل الوجه والروح... علاقتنا كان فيها الكثير من الحب والزهو والخيلاء أمام عائلتينا، كنا نلعب طول اليوم ولا نشعر بالوقت، وعندما نتعب ليلاً، نبيت حيث كنا، في بيتنا أو في بيتهم، وفِي البيتين نكون مدلّين، فأمي هي عمّة أمه، وهو ابن بنت خالي الكبرى...

لا أتذكر ماذا حصل...

أتذكر أنهم قالوا إن (ناظم) مصاب بورم في الدماغ، أو أن هناك نزفاً دموياً في دماغه نتيجة ضربة سابقة على الرأس...

وأنه سيصاب بالشلل من جراء ذلك...

لم أستوعب وقتها...

وعندما أصيب (ناظم) بالشلل، وانتقل بيتهم إلى بيوت الميناء في حي عدن، كان يصر وهو مشلول أن يأتوا به إلى الجبيلة لنلعب سوية، وكنا نلعب معاً، وهو بيد واحدة، ورجل شبه مشلولة...

كنت طفلاً وأتذكر أنني كنت أبكي بصمت...

أشار عليهم بعض الأطباء أنه قد يستفيد من اجراء عملية فتح جمجمة وازالة الورم، أو لإزالة النزف الدموي... وافق الأهل بعد أن ازدادت حالته سوءاً... اجريت له العملية في بغداد أو في البصرة؟ لا أتذكر، ففي مستشفيات الفاو لم تكن هناك إمكانية لإجراء هكذا عمليات في بداية السبعينات، مات حبيبي وصديقي ناظم بعد اجراء العملية...

لا أنسى ما حييت وجه (ناظم) الجميل وشكل عينيه وابتسامته وهو طفل... كان قوي البنية، ويغلبني دائما في لعبة (الخرز)، أو ما يعرف بـ(الدعابل)، وكذلك هو يغلبني في المصارعة، إذ كنا نقلّد ونحن أطفال (عدنان القيسي)،

أين ذهبت بطفولتك البريئة يا أيها البلبل العذِب؟!

٢٠

في تلك الأيام كان لشهر محرم في قضاء الفاو طعم خاص وطقوس خاصة لنا نحن الأطفال... وكانت أعمارنا الصغيرة تسمح لنا بمرافقة أمهاتنا في مجالس العزاء النسائية...

وكانت حسينية (الملاّية فاطمة)، هي إحدى أشهر الحسينيات النسائية في القضاء تلك الأيام... وهي تقع بعد مقبرة سيد غريب بشارع واحد في منطقة الجبيلة...

كنا نرافق أمهاتنا يومياً لنستمع إلى قصة استشهاد الامام الحسين وأصحابه عليهم السلام... وكان كل يوم مخصصاً لاستشهاد بطل من أبطال واقعة كربلاء... كانت (الملاية فاطمة) من أطيب النساء في القضاء، ويعدها الكثير من أهالي الفاو بمثابة أمهم، لطيبتها... كانت تقرأ قصة استشهاد الحسين عليه السلام بصوت شجي حزين يجعل الكل يبكي حتى الأطفال، فكنا نبكي بحرقة على استشهاد الامام المظلوم وأولاده وأصحابه...

في يوم من الايام وفِي بداية السبعينات وفِي شهر محرّم وقبل الذهاب إلى حسينية (الملاية فاطمة)، سمعت والدتي تقول لوالدي: (اليوم مثل كل سنة بمحرّم ناذرين نذبح ماجد... حتى الملاّية تذبحه)

لم أفهم شيئاً وقتها... لكنني مع ذلك شعرت بالخوف، ولكن شيئاً ما جعلني اطمئن، وهو أنني مدلل والدتي فكيف تذبحني...

وذهبنا أنا وأمي كالعادة إلى حسينية (الملاية فاطمة)، وكانت الحسينية هي بيتها أيضاً، حيث خصصت غرفة كبيرة من البيت لغرض استقبال نساء المنطقة والاستماع للعزاء... وبعد انتهاء القراءة والبكاء على مأساة الامام الحسين ع أخذتني امي بيدها وتوجهت إلى الملاية، فشعرت بالخوف مرة ثانية، وعندما وصلنا إلى الملاية الطيبة وهي أكبر سنا من والدتي، ابتسمت بوجهي، وقبلتني، ثم امسكت القرآن الملفوف بقماش اخضر ومسحته على رقبتي من القفا...

وهكذا تم ذبحي!

تم ذبحي وسط دعاء الملاية لي بطول العمر والعافية...

وقبلتني مرة ثانية، وقالت لأمي (اخذيه ان شاء الله عمره طويل)، كانت عملية الذبح تتم كفداء لاستشهاد الطفل عبد الله الرضيع ابن الامام الحسين عليهم السلام...

ولا أزال وفي كل محرم أتحسس رقبتي حتى أشعر بحز القرآن عليها...

أهالي الجبيلة تحديداً وبشكل خاص وأهالي الفاو بشكل عام من الصعب عليهم نسيان (الملاّية فاطمة)، لسنين وسنين...

٢١

كانت ليلة رمضانية مهمة لنا نحن الأطفال وهي ليلة (الگرگيعان)... وكانت سنة ١٩٧٥... وكنت قائد مجموعة الأطفال في شارعنا في الجبيلة...

كنّا مجموعة من الأطفال يتدلى على رقبة كل واحد منا كيس من القماش مربوط بحبل في الرقبة صنعته أمهاتنا خصيصاً لهذا اليوم...

وبعد أن أكملنا جولتنا على بيوت شارعنا والشوارع المجاورة، كان لي رأي -بصفتي قائد المجموعة- أن نتجه إلى حي عدن!!

وهو حي يقع بالقرب من الجبيلة... لنكمل جولة الكركيعان بدون أن نأخذ بعين الاعتبار نصيحة الأهل! وتحذير البعض لنا من وجود عصابات من الأطفال تحمل أمواس تقطع حبل الكيس من الرقبة وتسرقه... وبذلك يضيع جهد الليلة هباء ونخسر ما جمعناه من البيوت من (المشبوش)، وهو خليط (الشامية والچكليت والكشمش والكرزات وووووالخ)...

لكنني وأنا قائد للمجوعة لم أبالي بالتحذيرات...

وما إن تجاوزنا (علوة) عمّي جبّار في الجبيلة وهي (العلوة) الأشهر في كل قضاء الفاو حتى فاجأنا بعض الأطفال الضحايا وقد قطعت العصابة أكياسهم بالأمواس وسرقتها!!!

وهنا بان التردد على الجميع ومنهم العبد لله...

ولكن لكي أبدو متماسكاً أمام مجموعتي، قلت لهم:

لنترك حي عدن وعصاباتهم الغدّارة ونتجه إلى حوز ابن ضبط...

وكان اختياري لهذا الحوز لوجود اقاربي فيه بكثرة...

وفعلا استجابت فرقتي لندائي، وتوجهنا إلى حوز ابن ضبط...

وما إن ابتدأنا بطرق الأبواب في حوز ابن ضبط حتى تفاجأنا بجمهرة من الناس خلف مدرستي الابتدائية (مدرسة الاحواز) وتوجهنا باندفاع الأطفال إلى مكان التجمهر، وإذا هي سينما منصوبة في الشارع والعرض السينمائي على حائط أحد البيوت ومجاني...

وكانت السينما المتنقلة المجانية تعرض مشاهد من فلم (طرزان في الادغال) وكاد أن يصيبنا الجنون من فرط الفرح والانتصار الذي حققناه...

وبعد نهاية مشاهد فلم طرزان تم عرض فلم لنور الشريف وسهير رمزي... ولا أنسى اسم الفلم أبداً (آنسات وسيدات)...

استمتعنا كما لم نستمتع من قبل أبداً، ورجعنا إلى بيوتنا نحن أطفال الجبيلة من أبطال شارع (عيسى بندر) ثملين بالنصر الذي أحرزناه

حاملين الأكياس المملوءة بـ(المشبوش)، علاوة على النصر الذي أحرزناه ونحن نتخطى (حيّنا) في الجبيلة إلى الأحياء الأخرى متحدين خطر العصابات والأمواس...

إضافة إلى فوزنا بمشاهدة عرض سينمائي جميل وبدون مقابل...

دخلنا أنا وأخي نهاد نزف البشرى للوالد وكم كانت خيبتنا كبيرة عندما وبّخنا بهدوء ولامنا على عصياننا لتعليماته!

٢٢

يقع بيتنا وقتذاك على حافة النهر في منطقة تسمى الجبيلة... وفي الضفة الثانية من النهر تقع ثلاجة (عيسى الأخرس) الشهيرة في الجبيلة، وكذلك بيت (نجم الطوب)، ويكون قبر (سيد غريب) الذي كانت الناس تتبرك به بالقرب من بيتنا أيضا...

هذه المقدمة لذكرى مهمة حصلت في ربيع العام ١٩٧٦...

وكانت يومها مناسبة زواج جارنا فاضل ابن المرحوم خضير فيروز، وكل الشارع محتفل في هذا الزواج... وكانت الأعراس وقتذاك في الفاو تعني الكثير من ناحية البهجة واستمرار مظاهر الفرح لأيام طويلة لكل شباب المنطقة...

وفي هذا اليوم نفسه أيضاً كان الناس على موعد مع مباراة لكرة القدم مهمة جداً جداً، في نهائي بطولة الخليج العربي الرابعة التي شارك فيها العراق للمرة الأولى، وهي المباراة النهائية بين العراق والكويت...

وكانت الناس تنتظر هذه المباراة بلهفة لأن الفريق العراقي كان الأقوى في البطولة وكان الفريق الكويتي قوياً جداً...

ترك شباب المنطقة والأطفال المقاربين لعمري وقتذاك جميعاً العرس وتجمّعوا في بيتنا لمشاهدة المباراة بلهفة...

جلس الجميع أمام شاشة التلفزيون الأسود والأبيض نوع (أوريون) بأنفاس محبوسة يتابعون المباراة الحاسمة...

كان الفريق الكويتي له السيطرة التامة في الشوط الأول واستطاع تسجيل ٣ أهداف مقابل هدف واحد، وسط ذهولنا الكبير، مما جعلنا نحن الاطفال في وقت الاستراحة بين الشوطين نذهب لقبر (سيد غريب) ونجلب بعضاً من تراب القبر ونضعه فوق التلفزيون أملاً أن يفوز منتخبنا الوطني ببركاته...

وجاء هدفنا الثاني في الشوط الثاني... وكنا بانتظار هدف التعادل، والكل رافع يديه للسماء يدعو رب العالمين...

كان عبد العزيز العنبري يشارك لأول مرة في حياته لاعباً أساسياً في هذه المباراة كونه لاعب احتياط في السابق...

وقد راهن عليه زاگالو البرازيلي مدرب المنتخب الوطني الكويتي وقتها، وقال عنه: إن هذا اللاعب الجالس على دكّة الاحتياط سيفجر قنبلة...

وأوشكت المباراة على النهاية والنتيجة ٣ للكويت مقابل٢ للعراق

وفي الوقت الاحتياطي تقدم الفريق العراقي بأجمعه باتجاه ساحة الفريق الكويتي مما جعل العنبري ينطلق بالكرة كالصاروخ باتجاه هدف منتخبنا الوطني وخلفه يجري رحيم كريم مدافع منتخبنا بلا جدوى، وكان الهدف الرابع القاتل...

سجل العنبري ٣ أهداف في هذه المباراة، وفعلاً كان معجزة المباراة...

سيطر الوجوم علينا جميعاً

بعد ذلك انفجرنا ببكاء مر وصل حد النحيب

أول وآخر مرة بكيت فيها بسبب لعبة كرة قدم

كل شباب المنطقة بكوا بلا استثناء

لأن العراق كان المرشح الأقوى في البطولة

واعتقد أنها كانت أقوى بطولة خليج بكل تأريخها

وهكذا ضاعت فرحة شباب المنطقة بالعرس بالخسارة القاسية للمنتخب

٢٣

كانت الحركة الرياضية في قمة مجدها في الفاو في سبعينيات القرن الماضي وفي مختلف الألعاب...

وكان هناك أبطال من نادي الفاو الرياضي على مستوى العراق وعلى مستوى العرب وعلى مستوى آسيا... وكل أهل الفاو يعرفون أسماء أبطال آسيا من أهالي الفاو في لعبة كمال الأجسام ورفع الأثقال، وكذلك أبطال في لعبة المصارعة الحرة والملاكمة والسباحة...

إلا أن لعبة كرة القدم هي الأقوى شعبية في الفاو...

وكان دوري فرق الفاو لكرة القدم يتمتع بشعبية منقطعة النظير...

وتأسس فريق الفاو لكرة القدم من هذه الفرق، وكان يضم خيرة اللاعبين الذين كانوا يستحقون بجدارة اللعب في المنتخب الوطني...

وكانت ساحات لعب كرة القدم كثيرة أشهرها ساحة شركة النفط وساحة حديقة الخليج العربي بضفاف شط العرب...

لهذه المقدمة قصة، وهي:

في العام ١٩٧٨ فاز نادي الميناء الرياضي بدوري القطر لكرة القدم لأول مرة في تأريخه، وكان نادي الميناء وقتها يحوي أقوى لاعبي

المنتخب الوطني؛ هادي أحمد وعلاء أحمد وجليل حنون ورحيم كريم... وهنا كانت المفاجأة...

عندما قام فريق الفاو بكرة القدم بدعوة نادي الميناء البصري، بطل الدوري، لمواجهة نادي الفاو على أرض الفاو...

وكم كانت فرحة الناس عندما قبل نادي الميناء هذا التحدي...

كان يوم المباراة تاريخياً... وكان مكان اللعب في ملعب حديقة الخليج العربي في حوز ابن ضبط، هذه الحديقة الجنة المحاذية لشط العرب...

لم يبقَ أحد من رجال وشباب وأطفال الفاو متخلفاً عن مشاهدة هذا الكرنفال الكبير، والنجوم من أبطال المنتخب الوطني...

كانت فرحة جنونية لأهل القضاء عندما يلعب ناديهم أمام المنتخب الوطني...

نعم كان نادي الميناء وقتها هو المنتخب الوطني العراقي...

وكلنا يعرف ما هو المنتخب الوطني العراقي لكرة القدم في السبعينات...

كانت فرحة لا توصف...

أنا لا أتذكر تحديداً نتيجة المباراة...

لكن الذي أتذكره أن منتخبنا الفاوي وقتها لم يخسر المباراة...

كان أبطال نادي الفاو: شاكر القصاب وجاسم حركات وفوزي ووو...

يصولون ويجولون بين أبطال المنتخب كأنهم أسود...

ستبقى أحداث هذه المباراة في ذاكرة ثلاثة أو أربعة أجيال على الأقل...

٢٤

مهنة المقاول كانت جديدة على أهالي الفاو حتى فترة السبعينات... حيث كان لبعض شباب ورجال هذه المدينة المسالمة حظ في هذه المهنة... ولوجود الكثير من الشركات العالمية في الفاو، انبرى بعض رجالاتها ممن يمتلك الدعم لامتهان مهنة المقاول، وأحياناً كان هناك مقاول كبير يعتمد على مقاولين يعملون معه...

كان أحد أهالي الفاو الطيبين واسمه (نبهان)، انساناً طيباً من عائلة طيبة امتهن هذه المهنة..

وكان (نبهان) السبب في أرزاق الكثير من عوائل الفاو، إذ أتاح لأبنائهم العديد من فرص العمل...

أحبه الناس مثلما هو أحبهم، وكان يسكن في حوز ابن ضبط...

وبعد أن برز بالمقاولات وأصبحت له شعبية كبيرة عند شباب الفاو، ولأنه أريحي وذو نفسية طيبة، فقد أحبه الجميع، ولكن للأسف كان أهل الفاو على موعد مع الحزن في ليلة من الليالي...

ففي وقت متأخر من الليل رجع (نبهان) بسيارته وكان مع أصدقائه للاتفاق على مقاولة جديدة، وفِي طريق عودته عن طريق حوز الجبيلة -الذي يقع فيه بيتنا- للوصول إلى حوز ابن ضبط وهو الحوز الذي

يقع فيه بيته، وكان يربط الحوزين في بداية السبعينات جسر طيني، وعند عبوره الجسر انزلقت سيارته وسقطت في النهر بهدوء مميت، ولأن الوقت كان متأخراً في الليل والناس نيام مات (نبهان) وهو في سيارته وسط النهر بصمت مريع...

ومن المحتمل أنه حاول إنقاذ نفسه، ولكن بدون جدوى...

وعند الفجر اكتشف أهالي الفاو أنهم قد فقدوا أحد رجالاتهم الأوفياء...

رحل (نبهان) وهو في قمة مجده وشبابه، وخلّف في أهالي الفاو حزناً شديداً... رحمك الله أبا ماجد

٢٥

الفاو كانت مدينة هادئة وآمنة إلى حد كبير، وحدثت تجاوزات هنا وهناك وتم السيطرة عليها بسرعة بسبب الألفة بين الناس، ولكن أن يصل الأمر على الجريمة القذرة!

نعم... حدثت جرائم قتل معيبة... وأنا عاصرت جريمتين في منتصف السبعينات، سأتحدث عن واحدة فقط!

كان يسكن الفاو من كل الجنسيات والملل، وأيضاً من كل المحافظات العراقية، وكذلك من بقية الدول، وكان للهند حصة كبيرة...

كان الكثير من الهنود يعيشون في الفاو ويرتزقون من خيرها الوفير، وكان الكثير منهم يمتهنون مهنة الخياطة حتى جاء البعث وقام بتسفير من لا يمتلك الإقامة منهم، وبقي بعض ممن حصل على الإقامة، ومنهم بطل هذه القصة (ش)...

كانت عائلته تعيش في الهند وتزوره فقط في أيام العطل الطويلة...

وكان (ش) مستأجراً بيتاً لوحده في منطقة الجبيلة، ويعمل صيدلانياً، إذ كانت له صيدلية في سوق الفاو...

كان كبير السن، ويتكلم العربية والفاوية بلهجة (مكسّرة)، أحب الفاو وأحبته!

ولكن الطيبة ليست بمنأى عن شر الأشرار...

كان (ش) مستأجراً شابين من أهل الفاو للعمل معه في الصيدلية، وأحياناً لإعانته في أمور البيت... أحدهما في عمر الشباب، والآخر في مرحلة المراهقة... وكان يعطف عليهما...

الجزء الشرير من الانسان أوحى لهذين الشابين أن (ش) يمتلك ثروة يخبئها في بيته، فقرّرا قتله!

نعم قتله!

لغرض سرقة أمواله الطائلة...

نعم قررا قتل الغريب!

إنها سابقة تحدث لأول مرة في هذا القضاء الهادئ الطيب...

قتلوه بدم بارد، الرجل كبير السن، ويقال قتلوه وهو نائم بوضع (حديدة) على رقبته، وقام كلاهما بالضغط عليها من الجانبين، وسط ذهوله طبعاً وهو رب نعمتهما!

قتلوه!

مات!

ولم يكن صعباً الاستدلال على القتلة، لأنهما كانا فقط من يدخل بيته ويعمل معه!

كان اعترافهما سريعاً... وكان ندمهما كبيراً، خصوصاً بعد أن اكتشفا أن (ش) لا يمتلك سوى قوت يومه!

تم عرضهما في تلفزيون البصرة وقتها، واعترفا بكل شيء، وتمت محاكمتهما، والحكم على الشاب بالإعدام شنقاً حتى الموت، وعلى المراهق (الحدث) بالسجن... وتم تنفيذ حكم الإعدام فعلاً بالشاب، أما المراهق فسُجن واختفت أخباره لحد الآن...

وكانت مثلبة على أهل الفاو أن يُقْتل بين أهلها غريب، وهي الأم الحنون لكل الغرباء...

٢٦

هناك أيام يستحيل أن تُمحى من ذاكرة أهل الفاو وهي كثيرة، وهذه احداها:

لا أتذكر السنة، يمكن ٧٧ أو ٧٨ ...

في الصيف، كل شباب مركز مدينة الفاو معتاد ظهراً أن يكون على موعد مع شط العرب -وهنا أتحدث عن مركز القضاء- فشط العرب في مركز قضاء الفاو وتحديدا حديقة الخليج العربي يكون في الصيف وعند الظهيرة عبارة عن أجساد سمراء، هذه الأجساد تغازل مئات الزوارق والبواخر بانسيابية رهيبة، لا يستطيع أي كاتب أن يصف جماليتها، حتى وإن كان عاشها...

في ذلك اليوم المشؤوم، كان الشاب الرياضي السبّاح الماهر الوسيم (جمال) على موعد مع الموت...

نزل للشط مع أصدقائه ومنهم أقاربي ليسبح، وطلب منهم أن يباحروا (أي أن يذهبوا بعيداً عن الجرف)، وافق الجميع وكانوا سباحين ماهرين...

وللعلم لم يكن هناك أي انسان في الفاو لا يجيد السباحة بمهاره حتى الطفل ذو الخمس سنوات، والنساء... الكل كان يجيدها كأي سبّاح

عالمي، وذلك لكثرة النهران قرب البيوت (النهران النظيفة جداً)، ولوجود شط العرب العذب...

باحَرَ جمال ورفاقه لحد ما وصلوا إلى (الدوبة)...

والدوبة لدى أهل الفاو هي (اللنج الكبير)

تحدّاهم جمال وقال انه سيغوص من تحت الدوبة ليظهر من جهتها الأخرى... منعه رفاقه، ولكن للأسف أغرته قوة شبابه وأصر وغاص تحت الدوبة، وكان قعرها عريضاً، فلم يره الناس بعدها وهو حي...

حاولوا انقاذه بلا فائدة...

غرق جمال...

ورجع الأصحاب بالخبر الصاعقة...

بعدها وقف مئات الشباب وهم بملابس السباحة وكأن على رؤوسهم الطير...

هل يعقل أن يموت جمال، هذا الرياضي والسباح الرهيب؟!

هل يعقل أن يموت انسان شاب في الفاو غرقاً؟! إذ كان الموت، وهو الزائر البغيض، يقصد كبار السن فقط!

لم تظهر جثة جمال أول يوم...

قامت حكومة الفاو في اليوم الثاني بجلب غواصين محترفين من البصرة للبحث عن الجثة، ولكنهم فشلوا!

وهنا انبرى جارنا عيسى الأخرس، الرجل العملاق الذي يرفع سيارة تاكسي -بلا مبالغة- بيديه وبكل سهولة، لقوته الخارقة، وأنا شاهدت ذلك بعيني عندما رفع سيارة شفروليه تاكسي موديل٦٢ لحد كتفه، رفعها من أمام الثلاّجة التي تزّود منطقة الجبيلة بقوالب الثلج!

انبرى عيسى متطوعاً لإخراج جثمان جمال...

غطس مرات عديدة، وكل أهالي مركز الفاو ينتظرون أمام الشط...

ثم ظهر عيسى وكان معه جثمان جمال...

لن أنسى منظر الساعة الجميلة في يد جمال اليسرى وهي تعمل ومنظر شباب أهل الفاو الذين كانوا بعمره وهم مذعورون أمام مشهد جثته الزرقاء المبللة...

أتذكر أن كل أهل الفاو شاركوا بتشييعه...

مات جمال وهو في قمّة شبابه...

٢٧

عندما كنا أطفالاً كان الأهل يحكون لنا حكايات الفيضانات التي كانت تجتاح القضاء في غابر الأيام، وكنا نستمع بلهفة...

ولحسن حظي انني شهدت آخر فيضان حدث في القضاء، وبحسب ما أتذكر كان تقريباً في منتصف السبعينات... كان الوقت ليس شتاءً وليس صيفاً، وكان بعض الناس ينامون في حوش البيت...

صحوت من نومي على صوت أمي رحمها الله وهي تطلب مِني أن أستيقظ، وكنت نائماً في غرفة الوالد رحمه الله... قالت: إن الفيضان قد يصل إلى منطقتنا (حوز الجبيلة) وإن أقاربنا من النساء والأطفال مِن منطقة (حوز ابن ضبط) قد قدموا إلينا لأن بيوتهم فاضت، وذلك لقربها من شط العرب... وأن رجالهم يطلبون العون...

كان الجو ممطراً، والوقت ما بعد منتصف الليل... توجه كل رجال وشباب (حوز الجبيلة) إلى (حوز ابن ضبط) لكي يسهموا في دفع خطر الفيضان، والحد من خطورة السيول، وكذلك لإنقاذ العوائل التي لا معين لها... وكانت الليلة عيداً لنا نحن الأطفال، فقد حسبنا أنفسنا رجالاً، وذهبنا مع آبائنا لغرض المساعدة...

كان بيت خالي أحمد غضبان مغموراً بالمياه لمستوى المتر أو أقل، وكذلك بيوت أعمامي الآخرين (سلطان ومحمود ومحمد) رحمهم الله جميعا...

وقمنا، نحن الأطفال، بمساعدة الرجال والشباب وسط فرحة الطفولة بمياه المطر ومياه شط العرب...

بعض البيوت البسيطة تهدمت بالكامل، ومنها بيت (ج)

وكان أسود البشرة، وبيته مبني من الطين وبسيط جداً وقرب الشط تماماً، وكان الرجل معتاداً أن يشرب العرق مساءً حد الثمالة، وحينما ينام، يبدو كالميت...

في ليلة الفيضان، نام (ج) وهو سكران تماماً كعادته، ولم يستيقظ عند حدوث الفيضان والسيول، ولم يتذكره أهالي (حوز ابن ضبط) إلا وقت الفجر بعد إنقاذ المنطقة كلها، وهنا صاح شباب المدينة: (ولكم خل نروح لبيت ج خاف سكران وما گعد من النوم)، وتوجه الشباب إلى بيته وكان متهدماً تماماً، وهو لا يزال نائماً على (الچوربايه) في منتصف حوش البيت، والسيول والمياه وصلت للحد الأعلى من الچوربايه، وكاد جسده أن يغرق في المياه... وصاح به الجميع: ولك إگعد، الفاو غرگت... فاستيقظ ثملاً وبقايا الخمر في رأسه، والتفت يميناً وشمالاً، فوجد نفسه مغموراً بالمياه...

يقسم الشباب أنه قال بلهجته الجميلة: (أيباااه هاي آنه وين... بجزيرة بوبيان).

٢٨

أذاع رشدي عبد الصاحب بيان الحرب يوم ١٩٨٠/٩/٢٢، وكنا للتو تسلمنا الكتب المدرسية، وكان هذا أول يوم دوام لي في متوسطة جنين وهو اليوم المدرسي الأول في مدارس الفاو والعراق جميعاً... كنت منهمكاً في تجليد كتبي للصف الثاني المتوسط... قالوا هناك بيان هام...

ذهبت لبيت جارنا أبو وليد لأن أولاده أصدقائي وبنفس عمري تقريباً، وكنا نشم رائحة الكارثة في الفاو... وفي بيت أبو وليد (خالد عبد الرحمن) سمعت بيان رشدي عبد الصاحب بالرد على العدوان الإيراني... كانت الساعة الثانية ظهراً تقريباً، وكان والدي لا يزال في الدوام في ميناء الفاو، ورجع قبل موعده، قالاً الحرب قامت...

بعد ساعة ابتدأ القصف المدفعي من قبلنا ضد إيران، بدون رد من الجانب الإيراني... وفي اليوم الثاني لم ترد إيران أيضاً... والقصف من جهتنا مستمر... في اليوم الثالث، ١٩٨٠/٩/٢٤ ابتدأ الجحيم بطلائع القصف الايراني ضد قضاء الفاو... وكان عشوائياً يطال كل شيء...

كانت عائلة سيد طالب، الرجل المعمم البسيط، تسكن منطقتنا الجبيلة، سقطت عليهم قذيفة مدفعية قتلت كل من في البيت،

وتناثر لحمهم على الحيطان... وكان سيد طالب حينها في السوق نجا من الموت، ولكنه مات بعد نزوحنا إلى البصرة، وتم انتشال جثته من شط العرب... مات غرقاً، وكان رجلاً مؤمناً بسيطاً يعتمر عمامة سوداء... كل يوم كان يمر أمام بيتنا على النهر عند ذهابه للسوق، ويلقي التحية على الصغير والكبير... وأهل الفاو لا يزالون يتذكرون سيد طالب وعائلته.

.....

تتمة:

رابع يوم وهو يوم ١٩٨٠/٩/٢٥ وقعت قذيفة مدفع على بيتنا، قلعت نخل الحديقة من الجذر، ودمرت ديوانية البيت، ولكننا نجونا لأن والدي نقلنا قبل يوم إلى قرية المخراگ مسقط رأسه، ونجا عمي بأعجوبة كونه كان في ديوانية بيتنا لحظة القصف...

.....

الديوانية هي (غرفة الاستقبال)

٢٩

لا تستطيع أن تتحدث عن الفاو قبل العام ١٩٨٠ بشيء إلا وتذكر مرزوگ...

عاش مرزوگ مع كل أهالي الفاو كأحدهم... كان أسود البشرة، يعمل حمّالاً ينقل (المسواگ) للناس عن طريق (عربانة) دفع طويلة يدفعها بيده... كان يشرب العرق بشكل مستمر وبلا انقطاع نهائياً، وربعيّته (قنينة العرق) معه دائماً... كان لا يرفع رأسه عن الأرض لخجله الرهيب وخصوصاً في وجه النساء، وكان كل أهالي الفاو يأتمنونه بشكل غريب... كان عزيز النفس أبياً شامخاً شريفاً عفيفاً، بيته عربته، ولا يقبل منّة من أحد، فقط أجرته، خمسة فلوس، أو عشرة فلوس، أو خمسة وعشرون فلساً، المهم (فلوس ربعيّة العرگ طالعه)

في العام ١٩٧٧ وفي يوم التعداد العام للسكان، كان هناك قرار منع تجوّل، لكن مرزوگ كسر هذا القرار وجلس بعربته، مدلياً قدميه إلى الأرض، وكان الجهاز الأمني يتجول، فشاهدوا مرزوگ، ودار بينهم وبينه الحوار الآتي:

- مرزوگ... ليش طالع مو تعرف منع تجوال؟

أجابهم بعد أن أعاد قدميه إلى العربة:

- هسه رجعت لبيتي، عدكم بعد شي وياي؟

فقد كانت عربته هي بيته الوحيد.

٣٠

في يوم من أيام العام ١٩٧٩، في زمن الرئيس العراقي الأسبق أحمد حسن البكر، نجحت الأول على قضاء الفاو في نتائج الصف السادس الابتدائي، ليس على الفاو فقط، وإنما على البصرة ربما، بل ومن المحتمل حتى على العراق، لأن معدلي كان ١٠٠% وربما كان طلبة آخرون قد حققوا معدّل ١٠٠% على الرغم من أن في ذلك الوقت من الصعب تحقيق هذا المعدل، لجدية التعليم وصعوبة أن تأخذ درجة كاملة في مادة الانشاء مثلاً...

ليست هذه هي الحكاية... الحكاية أن الرئيس البكر قرر أن يكافئ الطلبة المتفوقين بسفره إلى اسبانيا...

ولكن فوجئنا بعد ذلك بشطب اسمي... وبعد كم يوم أرسلوا على أبي وقالوا له: ماجد عنده سفرة هدية من رئيس الجمهورية لأربيل... وسلموه خمسين ديناراً مع راديو ذي السماعتين...

المهم أبي قال: (بويه عوف اسبانيا وروح لأربيل)

وقبل سفرة أربيل بيوم انكسرت يدي... فخسرت السفرة وقلت في نفسي بقيت الخمسين ديناراً والراديو... ولكني لم أحصل على الخمسين ديناراً واكتفوا بإرسال الراديو ذي السماعتين بيد أبي...

٣١

كان هناك رجل دين له جامع خاص باسمه في منطقة الفاو الجنوبي، وليس في مركز الفاو، اتفق كل أهالي الفاو على محبته، كان هو القاضي الشرعي لكل الفاو فيما يخص القضايا الشرعية، الزواج والطلاق وكل القضايا المتعلقة بالدين... اشتهر بأخلاقه العالية وطيبته وكرمه، كان كريماً إلى درجة أنه لا يبقي أية هبة تمنح له، فيقوم على الفور بتوزيعها على الفقراء... كان مسجده مكاناً للمثقفين والفقراء والمساكين، لا يترك أحداً يخرج بعد الصلاة بدون أن يأكل وجبة طعام، علما أنه لا يملك أي شيء سوى كرمه العظيم... كان يعد أحد ممثلي مرجعية النجف في الفاو، وللعلم أسماه المرجع الشيعي آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي (كريم العلماء)، وهو رجل الدين الوحيد الذي أطلق عليه هذا اللقب، ومن مرجع ديني شيعي كبير...

الحكاية تدور حول حادثة طلاق كان والدي رحمه الله شاهداً عليها... طلاق زوجين من أهل الفاو لديهم ولدان، ولكن المشاكل هي السبب في الطلاق...

قال لي والدي: ذهبنا إلى الشيخ عبد علي ومعي شاهد آخر من أهل الفاو، واستقبلنا الشيخ بوجه نوراني جميل بشوش مبادراً بالقول: (الله

يرحم ملّا مسلّم)، وملاّ مسلَّم رحمه الله هو جدّي! وكان صديقه في سالف الأيام... وبعدها قال لي –والحديث لوالدي- (حميد الطلاگ يلحگ ليش مستعجلين، عندي ديچين هسه راح يذبحوهن، خل نتعشّى وبعدين الطلاگ)، يقول والدي في هذه الأثناء تغيّر الجو تماماً وإذا الزوج والزوجة، أعداء الأمس، أحلى عاشقين...

يقول إنهم بعد ذلك أكلوا الديكين، وشربوا شاي الشيخ عبد علي، وخرج الزوجان وكأنهما عريسان للتو...

يقول والدي إن الشيخ عبد علي لم يدخل في جيبه فلس واحد من هذه القضية ولكنه كان سعيداً كسعادة الأرض العطشى بزخات المطر...

إنه الشيخ (عبد علي النجم) الذي وصلت بعض معالم سيرته عند أهل الفاو حد الأسطورة...

٣٢

وكنت في الصف الثالث الابتدائي، في مدرسة الأحواز الابتدائية للبنين في قضاء الفاو، وكان دوامنا مسائياً أي بعد الظهر. وكانت هذه المدرسة تقع في منطقة حوز ابن ضبط وهي منطقة شعبية جداً.

كانت هناك استراحة بين الدرس الثاني والثالث تطول لمدة نصف ساعة تقريباً أو أكثر وهي مخصصة لتوزيع وجبة غذائية للتلاميذ، وكانت هذه الوجبة تتكون من (بيضة مسلوقة مع قطعة جبن مثلث مع قطعة مربّى معلبة وقطعة زبدة معلّبة مع حليب مع صمونة) وكانت مدرستنا مشمولة بهذه الوجبة المجانية المفيدة جداً التي تقدمها الدولة مجاناً لتلاميذ المدارس في المناطق النائية كمدينة الفاو...

كان يوجد معنا تلميذ، لا أريد أن أذكر اسمه، من عائلة فقيرة جداً وكان مظهره يثير عطفي وأنا في ذلك العمر، وكنت أحبه ومتعاطفاً معه جداً لوضعه المثير للشفقة، وكثيراً ما كنت أساعده بشكل أو بآخر...

هذه المدة ما بين الدرسين الثاني والثالث كانت بالنسبة له هي منتهى الفرح والسعادة، وكنت أراقبه وهو سعيد بهذه الوجبة العظيمة، كان يلتهمها بفرح غامر وسعادة رهيبة ونشوة عظيمة...

كان مسالماً طيباً غير مشاكس رث الثياب حتى إنه كان يأتي للمدرسة أيام الشتاء الباردة بملابس الصيف...

الذي لا أنساه هو:

في ذلك اليوم الذي ذكرته في بداية الحكاية... وبعد انتهاء الدرس الثاني، وكان المعلّم الذي لا أريد أن أذكر اسمه أيضاً يعلن انتهاء الدرس ويطلب منّا التوجه لتسلم وجبة التغذية...

فجأة توقف المعلم وطلب من هذا التلميذ المسكين أن يبقى في غرفة الدرس ولا يخرج لتناول وجبة الأكل، ولا نعرف السبب، الكل استغرب وإذا بالمعلم يقول (ولك خنزير ليش تضحك؟ چلب ابن چلب)، وأوقفه بجانب الحائط وأشبعه ضرباً وركلاً حتى كان يمسك رأسه ويضربه بالحائط، وقام بضربه على وجهه حتى أدمى أنفه... ثم قال له (يالله روح اكل زقنبوت)

لم يخرج التلميذ المسكين معنا لتسلم وجبة الأكل المهمة بالنسبة له...

لم نستطع، أنا ومعي تلميذ آخر أكل الوجبة المجانية اللذيذة، وعندما رجعنا لغرفة الدرس وجدناه يبكي بكاء يفتت الصخر، فقدمنا له الوجبة التي لم نستطع أكلها، فرفضها بعنف...

لن أنسى هذا الموقف طيلة حياتي...

.....

تنويه: هذه الحكاية كتبتها قبل ٣٨ عاماً وأنا لا أقصد الانتقاص من مهنة التعليم، إنما كان موقفاً صعباً آلمني جداً وقتها، وحتى لو كان هذا التلميذ قد أساء فعلاً، فلم يكن يستحق هذا القدر من الضرب، خصوصاً وأنه كان بانتظار وجبة الأكل المجانية التي كانت تقدمها الدولة للمناطق النائية مجاناً في وقتها.

٣٣

كان نهر الجبيلة هو النهر الوحيد في قضاء الفاو الذي يعده أهالي الفاو غير صالح للسباحة والاستخدام البشري، وذلك لكثرة ما يصب في هذا النهر من مخلفات السوق والشركات لأنه النهر المركزي في القضاء، وكان النهر يقع أمام بيتنا تماماً ويبعد عنا نحو ١٥ متراً. كنت أشعر بالحزن وقتها أيام الصيف لأن نهرنا غير صالح للسباحة، وبقية أنهار الفاو عذبة وصالحة للسباحة والاستخدام البشري...

وكان الأهل يمنعوننا من السباحة في هذا النهر، حتى لا نصاب بالأمراض...

لذلك كان الأطفال من بقية الأحواز يسخرون من أطفال حوز الجبيلة لأن نهرهم غير نظيف، وكنا نشعر بالحزن الكبير بسبب هذه السخرية... وكنا مجبرين أن نسبح أيام الصيف في الأنهار التي تقع في الأحواز المجاورة، وكان الحوز الأقرب لبيتنا هو حوز ابن ضبط، وهو يبعد عن بيتنا نحو كيلومتر.

أيام الصيف كان أطفال حوز ابن ضبط يشعرون بالفخر لأن أبناء الجبيلة يسبحون في نهرهم... وأنا أعشق نهر حوز ابن ضبط كثيراً لأنه النهر الذي تعلمت فيه فن العوم، والسباحة بمعناها الجميل، والشيء

الجميل هو أنني تعلّمت العوم لوحدي في هذا النهر بدون مساعدة من أحد، إلا انني غرقت فيه وتذوقت طعم الموت وقتها، وكان ذلك في العام ١٩٧٣، وكان شعوراً غريباً عندما رأيت النور مرة أخرى وأيادي ابن عمي فالح وهي تنتشلني للحياة وهو يصيح (شلون تعبر النهر وانت ما تعرف تسبح)، قلت له (مو أمس بِلِتْ بحلگ الابو شلامبو)... والمقصود بـ(الحلگ هو الفم)، والابو شلامبو لدى أهالي الفاو هي سمكة برمائية صغيرة لا يزيد طولها على العشرين سنتيمتراً، تعيش في الأنهار وفي طين الأنهار قرب جرف النهر بالتحديد، وهي سمكة لا تُؤكل في الفاو، وكانت الأمهات تقول للأطفال حتى تتعلموا السباحة يجب ان تتبوّلوا في (حلگ ابو شلامبو)...

فكان جميع من لا يعرف العوم من الأطفال لزاماً عليه أن يمسك (ابو شلامبو) بيده ويفتح فمه ويبول فيه ثم يرميه في النهر...

لم يكن يوجد طفل في الفاو عمره يتجاوز الخمس سنوات وهو لا يجيد السباحة، لأنهم جميعاً تبوّلوا في فم الابو شلامبو!

.....

الحوز هو المنطقة المحصورة بين نهرين كما ذكرنا في مورد سابق، ولا تزيد مساحته عن ٢ كم، وبذلك نكتشف عدد الأنهار الكثيرة في الفاو وقتها... وتسمية (ابو شلامبو) خاصة بأهالي الفاو فقط.

٣٤

يبدو أن الحديث عن الخارطة التجارية لقضاء الفاو قبل العام ١٩٨٠ غريب، خصوصاً بعد أن مرت سنتان منذ اندلاع الحرب العراقية الايرانية في ايلول العام ١٩٨٠، وتفرق كل أهالي الفاو في مختلف محافظات العراق. ولم تكن لي القدرة على الكتابة عن تجار الفاو إلا بالاستعانة بوالدي.

وتبدأ الخارطة التجارية للفاو الحديثة منذ العقد الرابع من القرن العشرين، إذ أمسك بزمام الوضع التجاري اثنان من أهالي الزبير، سكنا الفاو ومارسا تجارة الحبوب والمواد الغذائية ومواد البناء وغيرها، وهما (عبد الرزاق وهَيّب) و(محمد وهيّب).

وكانت عوائلهما تسكن الزبير، وهما يعيشان في الفاو.

بعد ذلك ظهر تاجر من أهالي الزبير أيضاً في العقد الخامس من القرن العشرين، وهو (عبد العزيز العيسى).

في تلك الأثناء ازداد عدد التجار، فظهر ثلاثة تجار، وهم (أحمد الونيسي) و(جاسم العياضي) و(راشد رشيد)، هؤلاء التجار جميعاً مارسوا تجارة الحبوب والمواد الغذائية ومواد البناء والقماش...

وعاش بعض منهم في الفاو حتى منتصف السبعينات، ومنهم (راشد رشيد).

بعد ذلك ظهر جيل آخر من التجار في العقد السادس من القرن العشرين، وكان أبرزهم (عبد العزيز العُبُدْ) المعروف في الفاو باسم (الحاج عزوز)، و(محمد عبد الرزاق الدبيچي)، و(مجيد خضيّر)، و(جبران موسى)، و(محمد جوهر)، و(اسماعيل سلمان).

وكانت هذه الاسماء بارزة جداً في أيام السبعينات، وقد عاصرت الأسماء الستة الأخيرة في طفولتي، وكانوا جميعاً محط تقدير واحترام أهالي الفاو، واشتهروا بحسن السمعة والطيبة والشرف ولازلت أتذكر محالهم ومتاجرهم في سوق الفاو، لغاية اشتعال الحرب العراقية الايرانية العام ١٩٨٠، حين انتهت الفاو بتجارها وميناءها الكبير وبحارها الثلاثة (الخليج العربي وخور عبدالله وشط العرب)، ونخيلها الذي تجاوز الملايين، وحنائها وزرعها وخيرها كله...

٣٥

كانت إحدى ليالي الشتاء في الفاو العام ١٩٧٨، عندما طرق بابنا ليلاً أحد الجيران ليقول إن زوجة (فلان) تريد أن تتحدث مع (أبو ماجد) ويقصد والدي... وكان يبدو أن الموقف واضح لدى الكثير، إذ كانت تريد أن تخبر والدي بأن زوجها قد توفاه الله ولا سند لها في الفاو سوى (أبو ماجد)، إذ كان ابنها يعمل في الكويت، وهي تريد أن تتم مراسم جنازة زوجها بدون أن تهدر كرامتها، لأنها لا تملك سوى قوت يومها، هي وبناتها في ذلك الوقت...

قام والدي بالتصرف سريعاً، وأتم تغسيل الميت وتشييعه ودفنه في النجف بدون ضجيج، وبدون اهدار لكرامة الميت...

وجاء ابنها لزيارة الفاو بعد مرور أكثر من شهر، وقام بزيارة والدي في البيت، يشكره ويقول له (الله يحفظك عمّي حميد ما قصّرت من مات الوالد، شلون أجازيك)، فأجابه والدي بأعذب ابتسامة...

٣٦

في ليلة خريفية من العام ١٩٧٤، لم يكن والدي في البيت، إذ كان لديه واجب في خور عبد الله، وقد قام بتكليف أحد أقاربنا الشباب للمبيت معنا، لأننا أطفال صغار.

كنا ننام في حوش البيت لأن الجو كان لا يزال حاراً رطباً.

فجأة وبعد منتصف الليل أفقنا من النوم على صوت عاصفة مرعبة، (ضربة)، والضربة هي العاصفة القوية العنيفة في لهجة أهالي الفاو. اقتلعت العاصفة كل شيء لم يتم تثبيته بشكل قوي سواء بالأرض أو بأي شيء آخر.

كانت أصوات صياح أبناء الجيران وهم يحثون بعضهم البعض للدخول للغرف وغلق الأبواب والابتعاد عنها من الداخل تملأ الأجواء.

العاصفة اخذت من بيتنا كل ما كان معلقاً على الحبال من ملابس وشراشف وأغطية النوم.

الخوف قاد ثلاثة من عائلات الجيران لطرق بابنا بقوة وكأنما للاحتماء بنا. فتوزعنا على ثلاث غرف. وكانت ليلة جميلة بالنسبة لي لن أنساها أبداً. بقيت العاصفة وقتها حتى الفجر، بعدها استطعنا النوم.

٣٧

عندما بدأت أفهم وأعي الدنيا في بداية السبعينات كنت أرى في بيتنا رجلاً معاقاً محدودب الظهر بشكل كبير يمشي بصعوبة لضعف في أقدامه، ويسكن معنا في البيت نفسه.

وكنت أحياناً وأنا طفل صغير أنام في فراشه في ليالي الصيف في حديقة بيتنا الخلفية والمحاذية لنهر الجبيلة. وكنا جميعاً في البيت متعلقين به وكأنه جزء مهم من البيت.

الحكاية كما يأتي:

جاء رجل غريب معاق من قرية (محيلّة) القريبة من السيبة في العام ١٩٦٦ ليسكن مركز قضاء الفاو، وكان وحيداً ويعيش من محل بسيط للبقالة افتتحه في سوق الفاو، وكان هناك من أوصى والدي به.

وكان اسمه قاسم، وكنيته زاير قاسم، أي أنه زائر لأئمة أهل البيت عليهم السلام. لم يكن له زوجة ولا أولاد ولا أخ ولا أخت.

طلب والدي منه أن يسكن معنا في البيت ووعده أن تكون له غرفة خاصة به، كما وعده أن يقوم بفتح محل له قرب البيت وذلك بسبب وضعه الصحي.

عاش معنا هذا الرجل الغريب منذ العام ١٩٦٧ وكان يأكل كما نأكل بالضبط، وكان كل أفراد العائلة بخدمته. وتقدم له وجبات الطعام بكل ممنونية ولسنوات طويلة.

ولا أنسى صوته في ليالي الشتاء الباردة وهو يقرأ القرآن من غرفته بعد صلاة الفجر.

٣٨

كنت أسمع من أهلي ومن الناس أن عائلة الميرزا هادي سكنوا مركز قضاء الفاو في وقت قبل أن تبصر عيني النور. أقول كنت أسمع أن عائلة ميرزا هادي آل جمال الدين قد انتقلت في يوم من الأيام من مدينة الناصرية للعيش في قضاء الفاو بصورة دائمة. كان بيت ميرزا هادي يقع بالقرب من بيتنا في منطقة الجبيلة بحوالي ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ متر لأنني لا أتذكر المسافة بالضبط... قرب نهر حوز ابن ضبط الذي يصب في شط العرب. كان البيت عبارة عن دار لسكن العائلة وفي الوقت نفسه كان حسينية لإقامة مراسم عزاء الإمام الحسين عليه السلام. السيد ميرزا هادي كان لطيف المحيا طويل القامة محبوباً يسير بين الناس بعمامته السوداء مهاباً محترماً من الجميع. وكنا نلعب سوية مع أولاده الذين يقاربوننا في السن، خصوصاً أيام الصيف عندما كنا نسبح معاً في نهر حوز ابن ضبط الذي يقع بالقرب من بيت ميرزا هادي. كان والدي يزور السيد دائماً ويتفقد أحواله وكثيراً ما أكون برفقته. أحب السيد ميرزا هادي أهالي الفاو وأحبوه هو وعائلته، وعاش بينهم كأحدهم. وكان رجال الدين في الفاو يشاركون أهاليها

أفراحهم وأحزانهم، ويكونون متواجدين في مجالس الفاتحة مع أهل المتوفي طيلة أيام العزاء.

أتذكر في العام ١٩٧٨ عند وفاة جدتي أم والدي رحمها الله، كان الميرزا هادي متواجداً، وبعد أن قرأ الخطيب الحاج محمد مصيب وهو صديق والدي وفي الوقت نفسه صديق الميرزا هادي، بعد أن قرأ العزاء الحسيني، وأتذكر موضوعه وهو عن أبي ذر الغفاري، إذ قام بشرح كيف أن هذا الرجل قام بالتبشير لأجل أن يقوم الفقراء بثورة ضد الطغيان الدكتاتوري في عمق الصحراء، وقال عن ثورته إنها كانت علامة فارقة في تاريخ الجزيرة العربية، وصنفها بأنها لبنة من لبنات الاشتراكية والمساواة بين البشر.

عند نهاية الخطبة سمعت السيد ميرزا هادي يتحدث مع والدي بلطف وقال له بالنص (من ورا خطبة حجي محمد كلنا راح يستدعونه لأمن الفاو). وأكمل الخطبة بقوله: فعلاً أبو ذر كان ثورة بذاتها، ثم قال بحسرة قولة أبي ذر الشهيرة (عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه).

وعلى الرغم من الحزن الذي كان يخيم على الموقف بسبب مجلس العزاء إلا أن والدي والحاج محمد مصيب والميرزا هادي ثلاثتهم تبسموا ابتسامة ذات معنى.

٣٩

عندما بدأت أفهم معنى الدنيا في بداية السبعينات، كان هذا الاسم (بديعة) في كل بيوت أهالي الفاو، فهي (الجدّة) أو(القابلة) لكل أهالي قضاء الفاو...

امرأة طيبة جداً، بسيطة ومبتسمة دائماً، كنت أراها عندما تزور والدتي في البيت لأنها كانت تحب والدتي كثيراً...

قامت بديعة بتوليد أعداد كبيرة من النساء في الفاو لينجبن أبناءً من جيلي ومن الجيل الذي سبقني والجيل الذي جاء بعدي...

كانت تدخل كل بيوت الفاو بلا استئذان، فهي ست كل البيوت وهي أم للجميع...

كان يتم طلبها في أي ساعة وفي أي وقت، صيفاً كان أو شتاءً...

وكانت تلبي طلب الجميع بلا تذمّر...

وكثيراً ما كانت تلبي هذه النداءات بدون أن تأخذ أجراً على عملها، خصوصاً إذا كانت العائلة فقيرة الحال...

والحكاية تبدأ مع ولادتي...

أخبرتني أمي أن ولادتي كانت في ظهيرة يوم ممطر من أيام الشتاء، وكان البرد قارساً، وتم استدعاء بديعة من قبل والدي لأن والدتي كانت على وشك الولادة...

كانت أمي قد فقدت ثلاثة من أولادها، لذلك كان واجب بديعة ليس بالهيّن...

جئت إلى الدنيا بسهولة وتم تسميتي شاكر من قبل خالي رضا، (شكراً لله) لكي يكون الاسم سبباً لتعويض أمي عن أولادها الذين ماتوا...

بعد سنين قالت لي والدتي انني مطلوب لبديعة، لأنها رفضت أن تأخذ أجراً عن عملها في مساعدة والدتي في عملية الولادة حتى أخرج أنا إلى الدنيا ولكنها قالت لوالدتي: انني أطلب ولدك، فهو سيكبر ويعيش ويتوظّف في الدولة، وأريد أن يعطيني أول راتب يتسلمه هدية...

فكنت أتمنى دائماً أن يأتي اليوم الذي أكون فيه موظفاً في الدولة لكي أرد جميل هذه المرأة الطيبة...

لم يكن والدي مقتنعاً باسم شاكر، فقام بتغييره إلى ماجد تيمناً باسم ماجد محمد أمين المدعي العام في محكمة الشعب في فترة حكم الزعيم عبد الكريم قاسم...

٤٠

(الحاج حاجي) اسم يعرفه كل أهالي الفاو بلا استثناء... فهو (المطهرچي) الوحيد والأقدم الذي عرفته الفاو منذ نشأتها الحديثة..

قد يكون هناك من امتهن هذه المهنة قبله، إلا أن اسمه لمع وكأنه مؤسس لهذه المهنة في الفاو...

سمعت من أبي بأن (الحاج حاجي) قام بختانه، وسمعت من عمي ومن خالي ومن كل جيل أبي والجيل الذي تلاه وجيلنا كذلك أنه هو من قام بختانهم...

فهو يمارس هذه المهنة منذ بداية الثلاثينات، وهو الحلاق المشهور في الفاو أيضاً...

وسمعت أيضاً أنه قام بختان الجيل السابق لجيل والدي، ووالدي من مواليد ١٩٣٣، فكم كانت مواليد الحاج حاجي؟

عرفته في طفولتي لأنه كان يزورنا في البيت وكان يجلس أحياناً مع جدتي رشيدة (أم والدي) ليدخّنا (الگدو) معاً أي الأرگيلة...

وعندما قرر والدي ختاننا في العام ٧٣ أنا وأخي نهاد في اليوم نفسه، لم يقبل الحاج حاجي أن يقوم بهذه المهمة، وقال لوالدي إنه لا يستطيع مسك الموس بدون أن ترتجف أصابعه بسبب الشيخوخة وكبر

السن، لذلك استعان والدي بأحد الممرضين في القضاء للقيام بهذه المهمة. وكانت ليلة صيفية جميلة حيث أقام والدي مولوداً جميلاً واحتفالاً دام للصباح حضره كل الاهل والجيران، ولا أزال أتذكر أصوات الدف والطيران في بيتنا الفاوي الجميل، لأننا، أنا وأخي نهاد سيتم ختاننا بعد شروق الشمس، وكان صباحا كئيباً مرعباً بالنسبة لي ولأخي نهاد، إذ هرب نهاد واختبأ في مقبرة (حي الجبيلة) وجاؤوا به بعد ذلك مخفوراً، أما أنا فتملكتني الشجاعة ساعة، وكانت النتيجة مخزية بعد ذلك، لأنني أكثرت من الصراخ أثناء العملية...

وزارنا في البيت الحاج حاجي ليلتها، وقال لأبي: لا داعي للمطهرات والمعقمات، إنما بمجرد (أن ينزل بولهم عالجرح فهو أحسن علاج، وهو ما كنت أفعله معكم عندما كنت أقوم بتطهيركم)

فأجابه والدي: إننا نختلف عن هذا الجيل، لذلك سأقوم بتعقيم جرح ماجد ونهاد بالديتول وليس بالبول، كما كُنتُم تفعلون بنا بعد الطهر...

فقال الحاج حاجي ممازحاً: (من شغلتنا صارت بيد المضمدين، ما صار بيها حظ)، فقد كان صاحب نكتة وفكاهة كما هو معروف عنه...

٤١

كان العام ١٩٧٧ وكان عيد الفطر، وكان عمري وقتها أحد عشر عاماً، خرجنا أنا وأخي نهاد بعد أن لبسنا ملابس العيد لزيارة بيت عمي الوحيد لأنه يقع بالقرب من بيتنا في (حوز الجبيلة) لغرض القاء تحية العيد عليه، وأعطانا عيدية لكل منا مئة فلس، ثم ذهبنا لزيارة بيت عمتي الوحيدة وكان بيتهم في حي عدن الذي يبعد عن بيتنا نحو عشر دقائق مشياً على الأقدام، وقامت عمتي بإعطائنا عيدية لكل منا مئة فلس. ثم رجعنا للبيت، وسمعنا من أولاد الجيران أن سينما شركة النفط في الفاو تعرض فلماً بمناسبة العيد والحضور مجاني. اتفقنا مع أولاد الجيران في الجبيلة على الذهاب بسرعة حتى نحصل على مقاعد وكان الوقت صباحاً، فوجئنا بعدم وجود ازدحام كبير ولم نعرف السبب، ودخلنا للسينما وشاهدنا الفيلم وكان فيلم عربي لم نتحمّس له كثيراً، انتهى الفيلم بخيبة كبيرة لأننا كنا نأمل أن نتفرج على فيلم كاوبوي ملئ بالحركة والأكشن والمسدسات ولكن خابت آمالنا.

المؤامرة كانت من شباب المناطق القريبة من السينما، إذ تم تمرير خبر سرّي لهم من قبل بعض الاداريين في السينما بأن سوف يتم عرض فلم كاوبوي بعد الظهر، لأن ادارة السينما كانت لا ترحّب كثيراً بشباب

وأطفال الجبيلة لكثرة مشاكساتهم وشغبهم، بحيث كان أبناء بقية أحياء مركز قضاء الفاو يطلقون على أبناء الجبيلة (الهكسوس).

لم نعرف بالمؤامرة إلا بعد فوات الأوان، حيث خسرنا مشاهدة فيلم كاوبوي مليء بالأكشن والقتال.

وحصلت بعدها أحداث مضحكة مع حارس السينما، إذ تم اتهامه بعد أيام انه هو وراء تسريب المعلومة لشباب الأحياء القريبة عن السينما، ولاقى هذا الحارس بعدها الكثير من المشاكسات والمقالب من أبناء منطقة الجبيلة، ولست هنا بصدد ذكر هذه المشاكسات مع حارس السينما...

٤٢

لعبة (الصگلة و لاگ) كانت لعبة مفضّلة لدينا نحن أطفال الفاو في السبعينيات...

الـ(لاگ) هو عبارة عن عصا يكون طولها عادة بطول الذراع تقريباً وعادة ما تكون من جريد النخيل الجاف، والصگلة هي عبارة عن عصا يكون طولها تقريبا ربع أو ثلث طول الـ(لاگ).

اللعبة كانت عبارة عن حفرة صغيرة نضع عليها الـ(لاگ)... وتبدأ اللعبة بأن يقوم أحدنا وهو صاحب الـ(لاگ) بضرب الصگلة ليرميها بعيداً وعندما تقع على الأرض يمسكها الخصم ليرميها باتجاه الحفرة، فإذا وقعت فوق الحفرة أو قربها بمسافة الـ(لاگ)، يكون الخصم قد فاز وبدوره سيقوم بتسلم الـ(لاگ)، أما إذا فشل الخصم بإيصال الصگلة لمكان الحفرة، فهنا يأتي دور صاحب الـ(لاگ) ليقوم بضرب الصگلة وهي على الأرض، حيث يقوم بضربها ثلاث ضربات ليبعدها عن الحفرة قدر المستطاع، في الضربة الأولى كنا نَصِيْح (آبللّي) لأننا نقوم بضرب الصگلة وهي على الأرض من حافتها فترتفع في الهواء لنقوم بضربها وهي في الهواء لنبعدها عن الحفرة، وفي المرة الثانية كنا نصيح (اكرب ماسللّي) لنعيد الكرَّة والضرب، وفي الثالثة كنا نصرخ

(بيچ وهالدگّة) فتطير الصگلة بعيداً وتقع على الأرض، عند ذاك يقوم الخصم ليأخذ الصگلة من الأرض ويركض باتجاه الحفرة وهو يصيح (كاطگطية وگاطگطوه) أو يصيح (تمرة وتينة) بدون قطع النفس، فإذا وصل للحفرة بدون أن ينقطع نفسه فإنه يكون قد فاز في اللعبة ليقوم بدوره بتسلم (اللاّگ)، أما إذا انقطع نفسه قبل وصوله للحفرة فإنه يكون قد خسر النزال ليعاود الكرَّة مرة ثانية...

الحكاية هذه المرّة مع ابن العم سليم عبد الخضر، في صيف العام ١٩٧٧ وأمام بيتنا تماماً، وكان بيده (اللاگ) وأنا من يتابع الصگلة، فضرب الصگلة وسقطت بعيداً جداً عن الحفرة، بحيث أنني عندما رفعتها من الأرض ورميتها باتجاه الحفرة سقطت بعيداً عنها، لذلك ابتدأ سليم بضربها وهي على الأرض، وكانت الضربة الأولى، فصاح (آبللّي) فارتفعت الصگلة من الأرض، فقام بتوجيه ضربة عنيفة بواسطة الـ(اللّاك) فطارت الصگلة في الهواء كأنها صاروخ لتشج جبهة رجل كان ماراً من أمام بيتنا وأتذكر أنه كان أسود البشرة، ولا أنسى أبدا تلك الدماء التي غطّت وجهه وقميصه. ارتعد سليم رعباً وهرب داخلاً لبيتنا، ولم نعرف أبدا إنه اختبأ في صندوق كبير في إحدى غرف بيتنا، حيث كان الصندوق مخزناً صغيراً لبعض أغراض البيت، لم نعرف بأنه اختبأ في هذا المكان إلا بعد أن قام أهلي بمعالجة المصاب وتعقيم جرحه والاعتذار له عن تصرف سليم، وأراد الوالد أن يأخذه

للمستشفى إلا أنه رفض، وقال –يقصدنا- إنهم مثل أولادي، وذهب والدي معه لبيتهم، وعندما تأكد سليم من انتهاء كل شيء بسلام، وبعد أن قامت والدتي بالبحث عنه وهي تصيح باسمه ظهر سليم من الصندوق حيث هو المكان الذي لم يكن يتوقع أحد أن يكون مختبأً فيه.

٤٣

في نهاية السبعينيات سمعنا نحن صغار السن أن فيلم (الشعلة) الهندي لـ(أميتاب باجان) قد حقق نسبة عالية في شباك التذاكر، وكان يعرض في سينما الكرنك في البصرة في العام ١٩٧٩، والعرض مستمر لنجاح الفيلم الساحق... كان عمري ١٣ سنة وقررت مع نفسي، إذا لم أشاهد هذا الفلم، فإنني سأموت من الكمد والقهر، وكان وقتها عيد الفطر، فاستطعت بدهائي أن أُقنِع اثنين من أصدقائي من الجيران أن نذهب من الفاو إلى العشّار التي تبعد عن الفاو ١٣٠ كم، لكي نشاهد فيلم الشعلة بدون أن نخبر أهلينا... ووافق كل من (عوّاد خالد) جاري لصق البيت في قضاء الفاو الذي مات في العام ١٩٨٧ مع أهله في الزبير بصاروخ ايراني سقط على بيتهم في الزبير، وقتل كل عائلته...

وكذلك (فؤاد خضيّر فيروز) الجار الجميل الأسود البشرة... فذهبنا خلسة إلى البصرة، واستمتعنا بمشاهدة فيلم الشعلة في سينما الكرنك ورجعنا إلى الفاو ولم يعرف بهذا السر أي إنسان...

كان فيلم الشعلة رهيباً جداً، وبكينا وقتها بكاءً مراً عندما مات (أميتاب باجان).

٤٤

الشوارع تحوّلَت إلى طينٍ ممزوجٍ بماء المطر الذي لم ينقطع منذ ثلاثة أيام، حتى أن بعض البيوت الطينية في المنطقة تآكلت وسقطت، ولم يكن هناك بُدٌّ لساكنيها من أن ينتقلوا إلى بيوت الجيران بعد أن هبَّ الكثير منهم للمساعدة. وكان للناس مواقف مع هذه الظروف، حيث خرج العديد من الأطفال والشباب وكبار السن وهم يرتدون (جزمات) القدم الطويلة مع واقيات للرأس والجسم من النايلون أو معاطف تقيهم من المطر، خرجوا لشق (خوارير) طويلة في الشوارع الترابية لتساعد في انسيابية تصريف مياه الأمطار إلى الأنهر الفرعية، وكان هناك نصيب لنساء المنطقة في المشاركة. المطر يستمر وبشكل أقوى وأعنف حتى أن وقت الظهيرة أصبح وكأنه الليل في شدة ظلامه لكثرة الغيوم السوداء. اظلمّت الدنيا بشكل كبير، وصوت الرعد مع الوميض يشق جدار السماء في منظر مخيف، والمطر يزداد انهماراً بكثافة مرعبة، مما جعل الناس ترفع أياديها إلى السماء طلباً للرحمة ودفع البلاء. كانت(أمل) البنت الشابة ذات السبعة عشر عاماً تشارك أبناء الجيران في شق (الخوارير)، وتحوّل جسدها مع الثوب إلى كتلة طينية متحركة، وحاولت بعض النسوة

سحبها إلى البيت لكنها رفضت بشدة. وكلما ازداد نشاط الشباب ازداد هطول المطر بعنف، ومع صوت الرعد المفزع وومضات البرق المخيفة انزلقت قدم أمل وسقطت بجسدها الطيني في النهر. كانت تجيد السباحة لكن نزول المطر بتلك الغزارة والقوة وهبوب الريح القوية والبرد الشديد والظلام، ولالتصاق ثوبها على جسدها الذي تحول إلى قطعة من الطين، لم تستطع السباحة، فسحبها تيار ماء النهر بالقرب من الجسر الذي يفصل النهر إلى شقين، وكان تحت هذا الجسر (بوري) لا يزيد قطره عن متر، ولا يتعدى طوله عشرة أمتار، ليربط ما بين شقي النهر. كان وصول أمل إلى هذا (البوري) يعني موتها المحتّم، لأنه مغمور بالماء حيث يربط شقي النهر في حالتي المد والجزر. وتحت ضغط عنف الطبيعة رمى أكثر من عشرة من شباب المنطقة أنفسهم في النهر، وبعد جهود كبيرة أنقذ الشباب أمل، وبكل فخر وتحدٍّ وقف الجميع على ناصية الطريق فرحين ومفتخرين بهذا الانجاز. عاشت أمل، لكن المنطقة كانت على موعد مع حزن من نوع آخر، حيث سقط أحد البيوت مع حائط الغرفة على خمسة أفراد من عائلة (أبو أحمد)، ولم يتمكن أبناء المنطقة من انقاذهم، مات اثنان من أفراد هذه العائلة، محمد الطفل ذو الأربع سنوات مع شقيقته فاطمة ذات العشرة أعوام. بقيت أمل التي عاشت والطفلان اللذان ماتا في ذاكرة أبناء المنطقة لسنين وسنين.

.....

تنويه: تم كتابة هذه الحكاية بأسماء غير حقيقية...

الجزمات: هي أحذية طويلة مطاطية تصل أحياناً إلى الركبة وتستخدم سابقاً في المناطق الطينية في أيام الشتاء وخلال نزول المطر.

الخوارير: هي شقوق صغيرة طولية يصل عرضها أحيانا إلى ٣٠ سم أو أكثر أحيانا تشق في المناطق ذات الشوارع الترابية لتساعد على نقل مياه الأمطار إلى الأنهار القريبة.

البوري: هو أنبوب حديدي يختلف قطره وطوله بحسب نوعه واستخدامه.

٤٥

منذ طفولتي وأنا أحفظ في ذاكرتي هذه العبارة (الاعدام شنقاً حتى الموت).

وأتذكر جيداً تلك اللحظة التي تم اعدام انسان (شنقاً حتى الموت) في هذا القضاء الساكن في منتصف سبعينات القرن الماضي، فِي ساحة عامة، وهي ساحة ميناء الفاو، التي تقع في مدخل الميناء، حيث تم نصب انشوطة الاعدام بدقة، وتم تبليغ أهالي الفاو بالحضور لمشاهدة تنفيذ الحكم، وكان وقت الاعدام فجراً...

كان الشرطي م قد قام بقتل ضابط شرطة في الفاو (...)، لأن الضابط –كما يقال- قام بشتم عرضه، ولم يحتمل الشرطي، فسحب سلاحه وقتل الضابط...

هكذا سمع أهل الفاو القصة...

وتم تنفيذ حكم الموت شنقاً بالقاتل وأمام جمهرة من أهالي الفاو ممن كانت له الرغبة في مشاهدة انسان يموت شنقاً...

وسمعت الكثير من أهالي الفاو ممن حضر واقعة اعدام الشرطي م شنقاً، انه كان نادماً جداً لحضوره هذه المأساة... فليس سهلاً أن ترى انساناً يموت أمامك بهذه الطريقة... ولا نعرف لماذا أصرَّت السلطة

وقتها أن يكون الاعدام في ساحة عامة، وأمام أنظار الناس، وفي وقت الفجر.

٤٦

(حسنة ملص) اسم لن ينساه أهل الفاو... لكن هل هو اسمها الحقيقي؟ أنا شخصيا لا أعرف... الحكاية فيها ضجيج... حسنة كانت تسكن (حوز ابن ضبط) القريب جداً من شط العرب في قضاء الفاو والحوز هو الحي المحصور بين نهرين في الفاو وذلك لوجود مئات الأنهار... ومن يقود هذا الحوز والمسؤول عنه اسمه (دهدار) ويكون تحت إمرة المختار، لأن المختار أعلى سلطة من الدهدار... وكان (دهدار) حوز ابن ضبط هو خال والدي وابن عمه في الوقت نفسه (أحمد غضبان) أو كما تمت تسميته (أحمد الصياح) بسبب قوة صوته في ذلك الوقت، أما عن (حسنة ملص) فهي امرأة جميلة جداً لا يعرف أحد أصلها وفصلها، سكنت في الفاو بشكل غريب وهادئ، ولم تؤثر على أحد... عاشت في حوز ابن ضبط واعتاشت على مهنتها التي يعدها البعض أقدم مهنة في التأريخ... عاشت حسنة بدون أن تزعج أحداً، وكانت لياليها تسير بهدوء وسريه وبلا صخب وبدون استثارة أحد... ولم يعترض عليها أهالي الحوز لهدوئها... ولكن بعد ذلك ابتدأ الهدوء بالاهتزاز، وكثر اللغط، وخصوصاً أمام جمال حسنة الملحوظ...

هنا تحرّك رجال حوز ابن ضبط، وكانت وجهتهم الدهدار، أحمد غضبان، أو أحمد الصياح، طالبين منه أن يتدخل لطرد حسنة من المدينة... والدهدار بما عرف عنه من طيبة ذهب لمقابلة حسنة وطرق الباب...

يقول الرواة؛ إنها بعد أن عرفته، فتحت له الباب، ولم تكن بملابس محتشمة، فقال لها بهدوء؛ اذهبي واحتشمي... وفعلا احتشمت وقالت له بغنج وكان وقتها وسيماً؛ ها أحمد انّوب انت شرايد مني؟

قال لها؛ أهل الحوز يطلبون منك الرحيل... وروى لها القصة...

يقول الرواة نقلاً عن الدهدار أحمد أنها أجابته: (مادام أهل الفاو مايردوني، وآنه اللي حبيتهم مثل نظر عيني، فلازم أعوف الفاو)

وطلبت منه فقط أن يجد لها (شرّاي) لبيتها، حتى تگدر تعيش بغير مكان، على حد تعبيرها...

وفعلاً، اجتمع أحمد رحمه الله برجال حوز ابن ضبط، ونقل لهم كلامها، وهنا كان القرار أن يقوم أهل الحوز بتجميع المبلغ لدفع ثمن البيت، وكان لها ذلك، فدفع الجميع كل بحسب امكانيته وأعطاها الدهدار المبلغ وتركت الفاو بهدوء ولم يعرف أحد مكانها بعد ذلك...

ولا يزال أهالي الفاو يتذكرونها بلا كراهية اطلاقاً، لأنها تركت الفاو بلا ضجيج وبدون أن تستند على مسؤول في الدولة لِلَجْم أفواه رجال المدينة...

٤٧

من كان يبحث عن قصص الحب العذري، كحب قيس لليلى، وحب روميو لجولييت، يجب أن يسأل أهالي الفاو عن اقوى قصة حب حصلت في تأريخها...

قصة حب عذري نظيف ونقي، جمعت بين اثنين من أهالي الفاو...

الفتي الأسود البشرة (أ)، الفنان الجميل الرائع، وأحد أجمل عازفي العود في الفاو، كان شباب (الكمالية)، وهي منطقة جميلة جداً في الفاو يسكنها موظفو وعمال شركات النفط التي كانت (يا مكثرها) في ذلك الوقت، في هذا القضاء الجميل... كان شباب الكمالية يستمعون لعزف هذا الشاب الجميل والطيب القلب، وكان عزفه يدمي القلوب، لأن أوتاره كانت تعزف لحن الحب والخلود والألم الشديد...

(أ) أحب ابنة منطقته التي تسكن الكمالية، وهي فتاة قمة في الجمال كانت حديث المحلة لجمالها الأخاذ، ولكنه كان أسود البشرة، وهي بيضاء... هو مسلم، وهي مسيحية، ولكنها مع ذلك أحبته بجنون وبقوة حبه لها... كانت أوتار عوده تضرب فقط لها، لحبيبته جُنّ بها وجُنّت به، فتقدم لخطبتها بالشكل التقليدي، وكان الرفض جواباً، ليس بسبب اللون، بل بسبب الدين...

عَرف أهل الفاو بالعشق الجنوني بين الحبيبين، فتعاطف معهم الجميع. الفتى كاد أن يصاب بالجنون، وكذلك الفتاة التي أضربت عن الطعام مدة وقررت الموت.

اتفق مع حبيبته على خطة للهروب معاً، بعيداً عن الناس والعالم ليعيشا مع حبهم الخالد... ونفذا الخطة، هربا معا إلى مكان مجهول، فقامت الدنيا ولم تقعد... بعد يوم أو يومين، رجعا معاً وكانا في بيت صديق في منطقة الفاو الجنوبي، أخبرت أهلها أنه لم يمس منها شعرة، وأنه قرر الموت على الزواج بهذه الطريقة...

والد الفتاة هزته القضية هزاً، وترك الفاو لجهة لم نعلمها وضاعت أخبار الفتاة...

أما (أ) فبقي مع عوده الحزين يعزف ألحان الحب والخلود ولم يستطع أن يعيش في الفاو بدون وجود حبيبة الروح والفؤاد، فغادر الفاو بشكل مفاجئ ولم يرجع لها أبداً، وانقطعت أخباره...

٤٩

هذه الحكايات من صميم الواقع المحلي ولا أحب أن يكون لها أي لون سياسي، إنما ولما لهذه الحكاية من واقع مرير ولالتصاقها بالذاكرة الفاوية بشكل كبير، كان لا بد من هذه المقدمة:

الكل يعرف أن الفاو هي منطقة في أقصى الجنوب، يبعد مركز قضائها عن البصرة أكثر من ١١٠ كيلو متر، وكانت في يوم من الأيام منفى وسجن للسجناء السياسيين، خصوصاً بعد حركة مايس ١٩٤١ ولحد العام ١٩٨٠ كانت توجد في الفاو منطقة اسمها (المعتقل) وكانت معتقلاً فعلاً وتحولت بعد ذلك إلى بيوت لعمال الميناء من أهل الفاو، وبقيت فكرة الفاو (المنفى) في عقول الحكام لحد عام الحرب ١٩٨٠، لذلك كانت الحكومات تقوم بنقل بعض الموظفين من الميول اليسارية والشيوعية إلى الفاو، كالأطباء والمهندسين والمدرسين والمعلمين وضباط البحرية وموظفي النفط وغيرهم، وهذا النقل كان يعد أحد أنواع العقوبات الإدارية، إذ أن الموظفين المنقولين هم من مختلف المحافظات العراقية شمالاً وجنوباً... وبما أن الاحدار الطبقي لسكان الفاو من طبقة العمال والفلاحين، سواء عمال الميناء أو عمال البحر كصيادي السمك وغيرهم، والفلاحين الذين يعملون في زراعة

النخيل والحناء وغيرها، لأن كل أهل الفاو يعملون إما موظفين أو عمال في ميناء الفاو أو صيادي سمك أو فلاحين... وهنا تأتي الحكاية:

أصبح تأثير اليسار واضحاً وصارخاً في الشارع الفاوي حتى أننا ونحن أطفال كنا نسمع كثيراً كلمة (الشعب) وكلمة (العمال) وكلمة (المساواة) وكلمة (العدل) وكلمة (الصراع الطبقي)، كنا نسمعها من العامل البسيط الأمي، وكان قد اعتنق الكثير من أهالي الفاو الفكر اليساري والفكر الشيوعي، وأصبح الكل يطالب بـ(العدالة الاجتماعية) ويطالب بـ(المساواة)، والكل يتكلم عن الصراع الطبقي وعن الديالكتيك والشغيلة والبروليتاريا وفائض القيمة، وأصبحت هذه الكلمات الكبيرة على لسان حتى باعة الخضروات والأميين...

عبد الكريم جاسم، مدرس فيزياء، طويل القامة وسيم رياضي بارع في كل صنوف الألعاب الرياضية، محبوب بشكل منقطع النظير من كل أهالي الفاو، وبالأخص طلابه في المتوسطة، محبوب من كل زملائه المدرسين، أنيق، ممشوق القوام، يسكن مع أخيه في بيت تابع للدولة، لعمال الميناء، في حي اسمه حي عدن...

بعد تسلم صدام للسلطة في العام ١٩٧٩ ابتدأت حملته ضد الشيوعيين، وكان للفاو حصة منها... قام مدير تربية البصرة، الذي كان يحبه أيضاً، باستدعاء الأستاذ عبد الكريم جاسم أو (كريم جاسم) كما يسميه أهل الفاو، وأخبره أن الوضع تغير بعد تسلم صدام للسلطة،

وعرض عليه أمرين: إما أن يترك الحزب الشيوعي والسير في الخط الوطني كما أسموه وقتها، أو السفر لدولة الجزائر والعمل هناك حتى يرى كيف تؤول الأمور، وهذا ما فعله الكثير من الشيوعيين وقتها...

رفض كريم جاسم الخيارين وأخبر مدير التربية أنه لن يترك العراق في هذا الوضع الحرج، ورجع للفاو وتم استدعاؤه مرة أخرى بدون جدوى.

إلى أن كان يوم من أيام شهر أيار بحسب ما أتذكر من العام ١٩٨٠، أي قبل الحرب، وبعد خروج كريم جاسم من المدرسة وكان يركب (البايسكل) تم اعتقاله من قبل رجال الأمن، ويقول شهود عيان إنه لم يستسلم لهم بل اشتبك معهم في معركة بالأيدي إلى أن تم ضربه بأخمص المسدس على رأسه وتم اخذه إلى (أمن الفاو)، وتم الضغط عليه لغرض توقيع البراءة من الحزب، ولكن بلا جدوى، ويقال تم الضغط على أحد أصدقائه لغرض الدخول عليه لأمن الفاو لإقناعه بتوقيع البراءة من الحزب وانقاذ زوجته وأطفاله، ولكن بلا جدوى...

وبعد أيام قلائل، رأى بعض الناس جثة طافية مربوطة بحبل وبلوكة في مياه شط العرب في البصرة، ويقال في منطقة النجيبية،

أي على بعد ١٣٠ كيلو متر تقريباً من مكان الاعتقال، وكانت هذه الجثة هي جثة (كريم جاسم) وآثار التعذيب الشديد واضحة عليه...

تم استدعاء أهله من قبل رجال الأمن للتعرف على الجثة، وتم سؤالهم سؤالاً وقحاً (هل له أعداء ليعملوا به هكذا؟)

فأجاب الأهل (لا... ليس له أعداء، لأن أهالي الفاو صغاراً وكباراً يحبونه لأخلاقه العظيمة)

لا أبالغ إن قلت إن الكل بكاه بحرقة، ولا يزال الناس من الذين عرفوه يبكونه...

تمت

ملحق صوري

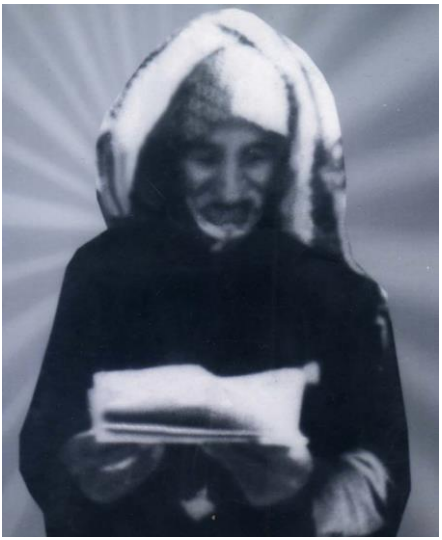

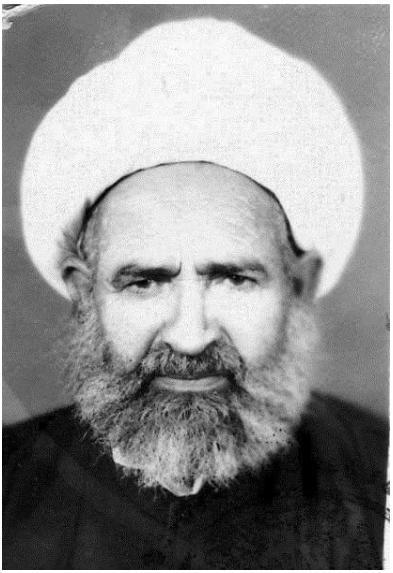

جمال

الاخ مالك عبيد
يوبرت سامبيورفي غنائيه
التي ضمت صادق غضبان ومالك ونوري عجيمي
وقد نشرت في منارات الحناء
٢٧/ ٩/ ٢٠١٥
منارات الحناء

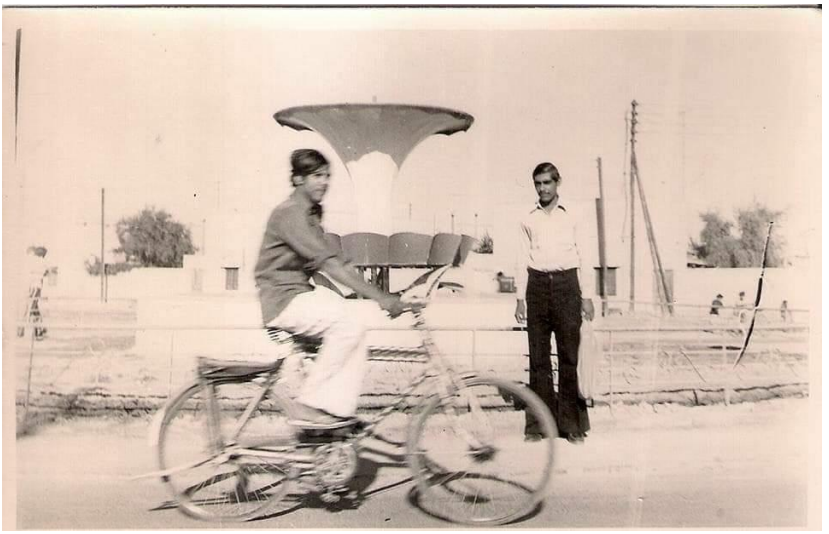

من وحي الفاو

لوحات للفنان كريم الدوسري

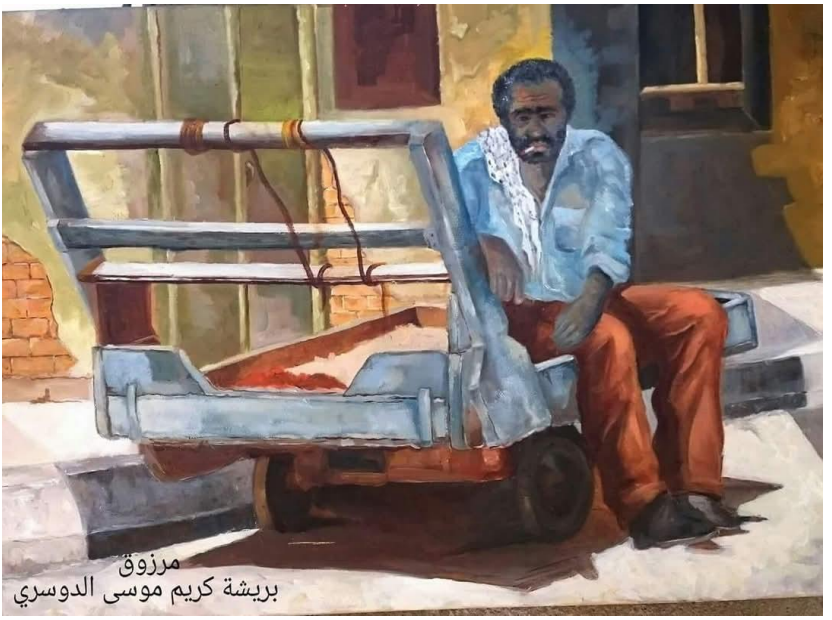

مرزوق
بريشة كريم موسى الدوسري